بيت النقب

مكتبة

سوزان الفرا

ترجمة عن الفرنسية

ندى الأزهري

دار العين للنشر

جائزة يامبو ولوقام الأفريقية 2010

PRIX YAMBO-OUOLGUEM 2010

بيت النقب

لن ننسى تشرين . . 23

لن ننسى غزة والشهداء

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa

مكتبة
t.me/soramnqraa

بيت النقب

سوزان الفرا

الطبعة الأولى / ١٤٤١هـ، ٢٠٢٠م
حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر
٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦
E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار
أ.د. أحمد شوقي
أ. خالد فهمي
أ.د. فتح الله الشيخ
أ.د. فيصل يونس
أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي
المدير العام
د. فاطمة البودي

الغلاف: عمرو عبد العزيز

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٩١٦١/٢٠١٩
I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 509 - 4

مكتبة
t.me/soramnqraa

بيت النقب

سوزان الفرا

ترجمة عن الفرنسية

ندى الأزهري

دار العين للنشر

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الفرا، سوزان

بيت النقب/ سوزان الفرا؛ ترجمة ندى الأزهري.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠٢٠

ص؛ سم.

تدمك: ٤ ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٥٠٩

١- القصص الفرنسية

أ- الأزهري، ندى (مترجم)

ب- العنوان

٨٤٣

رقم الإيداع / ١٩١٦١ / ٢٠١٩

هذه الترجمة العربية لكتاب:

La maison du Néguev

By: Suzanne el kenz

Copyright © by Les éditions de l'Aube

إلى ولديّ،
سلمى وأنيس

المحتويات

1. بيت النقب 11
2. رائحة البلد 25
3. عودة المنفى 33
4. الزواج وحكايات الماضي 37
5. الرحيل من جديد 45
6. نانت، اختفاء آخر 51
7. ما وراء البيت 57
8. الحرية... أخيرًا! 61
9. ابن البلد 65
10. الجزائر... انصراف! 69
11. غزة - الهاجس 2009 75
12. النقب، النائي هناك! 81
13. صديق بيت حنينا 85
14. القدس المدينة القديمة 89

15. استراحة في أريحا 93
16. نزهة في رام الله 97
17. يافا... ثمّ تل أبيب 101
18. ولـمَ كل هذه الحواجز؟! 105
19. غزة، المستحيل بعينه 109
20. يوم في عكا 113
21. صباحات بيت حنينا 119
22. على الطريق إلى النقب 121
23. بيت النقب – 2 125
24. نابلس، السامريون... وحكايا أخرى 129
25. القدس، كمان وكمان 141
26. الحرم القدسي الشريف وصلاتنا الأولى 145
الخاتمة 149

مكتبة
t.me/soramnqraa

1

بيت النقب

ما زلت أذكر ذلك اليوم، كما لو كان بالأمس.

كان يومًا شديد الحرارة من أيام شهر آب في غزة. كنا في سيارة سالم ابن خالتي وكان يقودها بعصبية على عادة الناس هناك. جلست أمي بجانبه فيما قعدت أنا وأخي في المقعد الخلفي. كان علينا ربط أحزمة الأمان واحترام إشارات مرور لا تحصى وهو ما لم نعتده في البلد العربي حيث كنا نقيم. لكن هنا في هذا المكان الذي نزوره، بدا لنا الأمر مؤشرًا على حداثة وتقدم. لقد كنا في إسرائيل!

لم يتوقف سالم عن البصق من النافذة. المقرف! لم يكفّ كذلك عن التذمر والسباب وصبّ لعناته...

- "آه... الإسرائيليون وإشاراتهم الحمراء اللعينة! كما لو أنها الشيء الوحيد الذي يستحق الاحترام في الحياة... مسخرة!"

لم تتفوه أمي بكلمة وعلا وجهها شحوب مقلق وحين كنا نوجه لها الحديث كان ثغرها يفترّ في محاولة للرد لكنها لا تنطق حرفًا. كنت وأخي متوترين للغاية وقلبي يخفق بشدة، فها نحن أخيرًا في طريقنا لزيارة بيت والدتنا الشهير وسنتمكن في نهاية المطاف من رؤيته!

سالم لحظ اضطرابنا بالطبع، كما انتبه لصمت والدتنا وقلقها ما رفع من وتيرة توتره. وبدا هذا في تصرفاته فكان يبصق من النافذة ويعبث بالمرآة ويحرّك مقعده تارة إلى الخلف وتارة إلى الأمام، يشغّل المذياع للحظة ثم يوقفه، وكل دقيقتين يلتفت نحونا سائلًا إن كان كل شيء على ما يرام! نعم! بالتأكيد كل شيء على ما يرام. فقط، كنا نتحرق شوقًا للوصول ونضيق بهذا الطريق اللامتناهي بين غزة وبير السبع، طريقٌ كلما تقدمنا فيه ازداد شعورنا بحرقة الجوّ وجفافه. كانت الصحراء من حولنا وقد تلاشى عبق غزة الحار والرطب وابتعدت نسمات بحرها... آه من بحرها هذا، جوهرتها الغالية...

تابع سالم محاولاته غير المجدية لإخفاء انفعاله المتزايد واهتياجه، وأخذ يتصرف كوحش على وشك الانقضاض علينا. لاحظتُ في الماضي غرابة تصرفاته مع الإسرائيليين، كان يبدو كما لو أنه يهابهم. أدركت أنه غير

مرتاح لهذه الزيارة ويلقي بمسؤوليتها على أمي.

- "بيتـك، بيت أبيك... كل هذا ضاع. ما نفع العودة؟ ما الفائدة؟ لا شيء إلا الألم. جردونا من كل شيء، فلمَ كل هذا؟"

لم تجب، تدرك أنه سيوصلها في نهاية الأمر إلى حيث تريد لذلك اكتفت بتسديد نظرتها المتعنتة والغامضة نحوه.

ها قد وصلنا بير السبع ودخلناها كما شاءت لنا أمي! رأينا اسمها عند مدخـل المدينة على لوحة بالعبرية والعربية والإنكليزية. كانت رؤية تلك الحـروف مكتوبة هكذا بوضوح كفيلة وحدها بهزّ كياننا. أيقنّا حينها أن أمرًا مهمًّا وغير اعتياديًا ينتظرنا وبأننا سنلمس أخيرا لمس اليد واقعًا لطالما سمعنا عنه وحاولنا تخيله.

نعم هذه مدينة أمي التي ولـدت وترعرعت فيها، المدينة التي لطالما رددت اسمها على مسامعنا: بير السبع... بير السبع.

إذًا، هي موجودة بالفعل!

بدت لنا المدينة حديثة بما لا يقارن مع الجزائر التي نعرفها جيدًا وكذلك مع غزة ورمالها ووحولها التي تركناها لتونا. كانت بير السبع مشابهة لتلك المدن الأوربية التي لم نزرها بل شاهدناها فقط في التلفزيون. أرصفتها نظيفة، ناصعة، حقيقية لا تشبه في شيء أرصفة غزة التي لم تكن في أغلبيتها سوى

كتــلا رملية. أيضًــا، كانت ثمة واجهات جميلة ومرتبة ببســاطة، وأناس بالشورت والقبعات يتناولون المثلجات، وفتيات بسيقان خمرية وأكتاف عارية يتهادين في الطرقات. كنت في الخامسة عشر من عمري وكان أخي يصغرني بعام، أي في سنّ ننبهر فيه بكل ما هو حديث. أُخذنا بكل ما نراه، بهذا العرض المثير المشوّق المتاح أمامنا... لكني اليوم وبعد مضي سنوات على تلك الزيارة، فإني حين أسـتعيدها وأنا هنا في أوربا لا أقدر حقًا على تفسير شـعورنا آنذاك، فكيف لبير السبع، المدينة الصغيرة ذات الأصول البدوية، أن تترك فينا كل هذا الأثر؟!

أمي كأنها لا تبصر كل ما يحيط بنا، تدور برأسـها في كل الاتجاهات جـلّ همها منصبٌّ على البحث عن شــارع معين، هــذا الذي يقع فيه بيت طفولتها. لكن المدينة تحولت لدرجة جعلتها عاجزة عن إيجاده، فراحت تهمهم غاضبة.

- "الله يخرب بيتكم خربتم كل شيء".

عثرنا عليه في النهاية بعد بحث طويل.

كان يبــدو من الخارج جميــلًا ومتينًا فهو مبني عــلى الطراز العثماني نوافذه واسعة محاطة بحديد مشغول وبابه مصنوع من الخشب وتتوسطه مِدَقّة من النحاس مصنوعة على شــكل رأس رجل عجوز. أمسكتها أمي وقرعت الباب وهي تعضّ على شـفتها السفلى، ما يدل عادة على نرفزتها الحــادة. لكنها لم تكتفِ بهــذا إذ راحت تخبّط الباب باهتياج شــديد بيد

واحدة أولًا ثم باليدين معًا. رمقنا سالم بنظرة شزراء كانت تعني "افعلوا شيئًا، هدئوا أمكما".

اقتربنا منها محاولين تهدئتها وربت أخي برقة على كتفها قائلًا:

- "ماما، هنا بيتهم. لماذا تتصرفين هكذا؟ من الطبيعي أن يخافوا منّا".

لم ترد ورمته بنظرة صاعقة، كان من المؤكد أن لديها الكثير لتقوله، بيد أنها هدأت في نهاية المطاف.

كنا نشعر أن ثمة عيونا تترصدنا من خلف النوافذ، أن هناك من يراقبنا، لعلّ اشياء كثيرة كانت تدور وراء جدران هذا البيت. كنت في داخلي مدفوعة بنوع من مثالية على الطريقة الأوربية وآمل أن نقع على يهود يساريين. "ناس ظراف" يعني، هيك شي! أتخيل نقاشًا بيننا حول "الأرض والبحر والسماء... ولمن تكون كلها؟!!" أتصور أننا سنثير قضية الظرف الإنساني الصعب والقيم وحقوق الإنسان وكونيتها، وسيسردون علي ما عانوه في الماضي وأنا سأقتنع! سيبررون كذلك حقهم بالاستقرار في هذا البيت والإقامة فيه وتوريثه للأحفاد، وبأننا لا نستطيع إلا التعاطف مع آلامهم السابقة، ثم سينتهون بمنحنا "حق" زيارة البيت فهم إنسانيون لدرجة تجعلهم يحترمون هذا الحق ومعه أيضًا حقوق الإنسان..."

كنت شاردة مع أفكاري تلك حين فُتح الباب.

برز منه رجل مرتديًا زيه الكامل! سترة طويلة وقبعة وجدائل...

رجل دين. آه، لم يكن ينقصنا إلا هذا! حين وقع نظري عليه استوعبت فجأة بأنني خلال نقاشي المتخيل مع هؤلاء اليهود اليساريين، لم أشر أنا "الخائنة" بكلمة إلى بيت أمي. هذا "البيت" الذي قد يسمحون لنا بزيارته احترامًا لحقوق الإنسان وعلى اعتبار أن الزيارة حقّ لنا. أشاروا فقط في تخيلاتي إلى "زيارة"... "زيارة" فحسب وكأنهم يشمتون بهذه البنت الخائنة التي أكونها. أما العلاقة بين رجل الدين اليهودي وأمي العنيدة فكانت جدّ واضحة ولا مجال لجدال فيها، يمكن القول بكل بساطة أن أحدهما لا يتقبل الآخر على الإطلاق! في أعماقي كنت أتمنى أن تتوقف الأمور عند هذا الحدّ ولا أدري إن كان سبب شعوري معاكسة أمي أو حمايتها. رغبت ألا يكون ثمة تتمة وأن تتوقف الأحداث بسرعة، نعم بسرعة وفورًا وألا نبدأ نقاشًا عميقًا حول مصيرنا وهو نقاشٌ تعي أمي جيدًا أنه معقد ومضن.

رجل الدين اليهودي شرع بالصياح وهو يتحرك في كافة الاتجاهات. كان طويلًا نحيلًا شاحبًا تعلو شفته العليا حبة سخونة ضخمة من النوع الذي طالما أثار قرفنا أنا وأخي. كان يتحدث بالعبرية ولم نفهم شيئًا من كلامه، فتولى ابن خالتي سالم مهمة الشرح معلنًا أنه ليس لدى السيد أدنى رغبة بسماع أي شيء عنا وأننا نغتصب مقره الخاص وسيدعو الشرطة.

يالسالم المسكين! هو الذي كان يسعى باستمرار للتصرف جيدًا مع الإسرائيليين. قُضي الأمر بالنسبة له! لعله يلعن في داخله هؤلاء المغتربين الذين لا يعرفون شيئًا عن البلد ويأتون مع حنينهم الأبله لينشروا الفوضى هنا! وكان يردد:

- هذا سلوك لا يصح مع الإسرائيليين، لا ليس هكذا!

رغبت بالرد عليه: "ومن ذا الذي يعلم كيف يتعامل معهم يا قريبي العزيز؟ هه، قل لنا، من؟ لا أحد في العالم ولا حتى الأميركان...".

كان الجدال يدور بالعربية، بالعبرية، بالحركات والإشارات... إلى أن تقدمت أمي بغتة وكأن قوة خفية مسّتها، أبعدتنا بذراعها واندفعت بحزم وتصميم في الممر، دفعت اليهودي بقوة نحو الحائط واقتحمت المكان كأنها سوبرمان في طريقه نحو السماء. في البداية جمدنا للحظات وقد أخذ منا الاستغراب كل مأخذ ثم سرعان ما تبعناها راكضين.

وجدنا أنفسنا في الصالون، كانت أمي سبقتنا إليه وخطت فيه عدة خطوات قبل أن تثبت في مكانها بلا حراك وقد ارتسم على وجهها تعبير غريب، كما لو كانت لا تبصر شيئًا إنما تدرك كل شيء. في نظراتها تركيز هائل كأنها تصغي لكل غرض، لكل قطعة أثاث وهي تبثها معاناتها بلغة هي وحدها القادرة على فهمها. كل شيء تقريبًا كان هناك، البوفيه الكبير وطقم السفرة والكؤوس والأباريق والمزهريات...

تعرفت في إحدى الزوايا على مقعد من الخيزران بمسندين، كأنه عرش مهيب، كنت قد رأيته في الصور وأحفظ قصته عن ظهر قلب. إنه كرسي جدي الذي لم يكن لأحد حق الجلوس عليه. حين كان أخوالي الصغار يتسلون أثناء لهوهم بالقعود عليه، كانوا يُعاقبون بضربات العصا أو بشدات الأذن، فقط! فجدي لم يكن يحب الصفعات أبدًا وكان يقول بأنها تحطّ من كرامة

العاطي والمتلقي. لكن الصغار حظوا مرة وحيدة بالجلوس على المقعد وكانت حين استلم الأخ الأكبر فايز شهادة جعلت منه "الشيخ" فايز وأهّلته لاستلام عمل في سلك القضاء الشرعي. اعتبرت المناسبة حينها في غاية الأهميـة وأُحضر للاحتفال بها كوكو الأرمني كبير مصوري غزة، فالتقط صورة للصبيين عثمان وحفص وهما جاثمين على المقعد الشهير، وبالطبع لم يخلُ الأمر من صورة أخرى للشيخ فايز في مكتبه وهو متربع على عرشه كملك مرتدي الثوب واللفة وعلى أتمّ الاستعداد لتسلم منصبه كقاض. الشيخ فايز لم يحقق نجاحًا يذكر في مسيرته المهنية، وكيف يفعل مع كل ما عرف عنه من ميل للخمرة والسهرات والأمسيات الغرامية؟! صحيح أن ذلك كان يتم خفية وبعيدًا عن النظرات، لكن العيون المحمرة بعد سهرة طويلة ماجنـة كانت كفيلة بفضحه وجعله محطّ تهكم الناس من حوله.

لنعد إلى صالون أمي.

في زاوية أخرى منه وأمام أريكة على شكل حرف ل، وضعت طاولة من خشب متين فُرِدَ عليها غطاء مطرز بعناية وفوقه استقرّ طبق دائري رائع من الكريستال حوى أنواعًا من الفواكه الطازجة والمجففة. أمي، التي لم تنطق بحرف لغاية تلك اللحظة، صرخت مستنكرة حين وقع نظرها عليه.

- "حتى طبقنا هنا!"

لم تمر سوى دقائق قليلة بين اقتحام أمي للبيت وهذا المشهد، ربما أربع أو خمس لا غير لكنها بدت لي بلا نهاية. كلنا، حتى ذلك اليهودي

ولسبب لا نستطيع تفسيره، وقفنا كمشلولين أمام هذه المرأة القوية والعنيدة والموجوعة، جمدنا أمامها وساد صمت ووجوم. كانت أمي وكان بيتها، وكنا مسحوقين تحت وطأة هذا التاريخ، تاريخها هي. وأمام هيبة المشهد لم يبق لنا مكان في الصورة ولا وجود، حتى سالم شعر بضآلته وفيما كنت وأخي نسترق النظر إليه آملين أن يلمّح باشارة ما حركة ما، ثبت في مكانه هو الآخر واستغرق في الصمت.

هنا، فوجئنا باقتحام امرأة وهي تصرخ بالعبرية وفي أشد حالات الاهتياج، كانت في حوالي الخمسين من العمر، لكن أمي لم تكترث بها ولا بفهم ما تبربر به بل صاحت في وجهها بالعربية:

- "يابنت الكلب، هذا بيتي! بيت أبي! هذا أثاثي وهذا طبقي".

ثم تابعت الصياح وهي تطبق على الطبق بكلتا يديها مخاطبة تلك الغريبة الواقفة بمواجهتها بالانكليزية هذه المرة.

- It's mine, Mine, do you know what does it mean. Mine. It's my home, my country..(*)

عند سماعه هذه الكلمات بالذات، دنا سالم الخوّاف مني وهمس:

- "يبيه، رجعت لوطنيتها الحمقاء! طالما كانت تحكي عن الطبق، ماشي. لكن، "البلد"؟ لمَ الحديث عن البلد؟! هي خطيئة هنا، خطيئة قاتلة، لا يجوز. على كل حال هذا يكفي الآن، لنخرج من هنا!"

(*) "هذا لي، هذا لي! أتعرفين "ما يعني" هذا؟ إنه بيتي. إنه بلدي!".

حسنا، هذا إن قدرنا على الخروج!

إذ أن أمي لم تكتفِ بما فعلت بل ضمت الطبق إليها بيدين منقبضتين وكأنها بوضعيتها تلك كانت تضمن المحافظة عليه، وبدت متشجنة تمامًا كمن فقد عقله.

تبادلتُ نظرات مرتبكة مع أخي ووقعنا في حيرة من أمرنا لا نعرف ما علينا فعله. كنا نتفحص أقل حركة من حركاتها وننتظر أن تنفجر ويخرج الزبد من فمها وينتشر حول شفتيها. لم يسبق ورأيناها على هذه الحالة، كانت تبدو دائمًا هادئة وعلى شيء من التحفظ. همس أخي:

- "أشعر بالخجل، كما لو أنها مجنونة".

المرأة، التي كانت في الواقع شقيقة مضيفنا، انقضت بغتة على أمي وانتزعت بعنف الطبق من يديها، بحركتها المفاجئة والعشوائية تلك تبعثرت محتوياته وتدحرجت في كل مكان، على الأرض على الطاولة... واكتمل المشهد حين رفعت المرأة بحركة مفاجئة أخرى الطبق فوق رأسها وقذفته على الأرض فتناثر في ألف قطعة.

ساد صمت ثقيل، كنتِ أردد خلاله بصوت منخفض "يا أرض، انشقي وابلعيني!" عبارة تعلمتها من أمي وكانت تستنجد بها في المواقف الصعبة. أما المرأة الخمسينية فانفجرت بنحيب عجيب، كأن دموعها تسيل من السماء. كأنها بعد شيء من تردد، ناشدت ربها أو لا أعرف من ليأتي لمساعدتها،

فأغاثتها السماء في نهاية الأمر. توجهت نحو أخيها بوجه مبلل بالدموع وصوت تقطعه حشرجة البكاء وغمغمت شيئًا بالعبرية.

بدا على أمي ارتياح غريب وهمدت كأنها استسلمت، وخرج صوتها هامسًا وهي تعلّق:

- "ياحرام! كسرت طبقنا الجميل".

سالم، الذي يرتبك عادة في مواقف كهذه ويسعى لتهدئة الأجواء ووضع حد لها، حاول التدخل متخذا نبرة مفتعلة تتناسب والحدث:

- "يالله! انكسر الشر".

لم يعلق أحد على كلماته "القيّمة" تلك، فقد تاه كل منا في أفكاره وهو يحاول إقناع نفسه بأن ما حصل للتوّ كان كابوسًا، مجرد كابوس. لم يمنعنا هذا من ملاحظة تعبير خاطف بالنصر ارتسم على وجهي مضيفينا، كما لو أنهما أدركا بأنهما حققا على غير توقع نصرًا أبديًا في المعركة.

شعرنا أن زيارتنا يجب أن تنتهي هنا، انسحبنا على أطراف أقدامنا كاللصوص يغمرنا احساس بأننا ندير وللأبد ظهرنا للحقيقة وخرجنا دون أن نلتفت وراءنا.

في السيارة كانت الأجواء مشحونة وخانقة لدرجة كبيرة، لكن سالم مالبث أن اقترح علينا بشيء من تردد:

- "وماذا لو قمنا بجولة في المدينة؟ نجلس في مكان ما. سمعت أنهم يصنعون بوظة لذيذة في هذه المدينة الصحراوية".

لم تعنِ كلماته شيئًا لأحد وظلت معلقة في الهواء. آه! هذا السالم! أية مدينة، أية جولة، أية بوظة...؟ مسكين يا ابن خالتي وأنت تسعى بلا كلل لتسوية كل شيء.

كنا نشعر بأننا شخصيات روائية تعيش مواقف خيالية، مع فارق أني وأخي بتنا الآن على دراية بالوضع وشاهدين عليه. سنحمل هذا العبء منذ اليوم وستترك تلك الزيارة الغريبة أثرها على مسيرتنا فيما بعد، هذا ما أدركناه في دواخلنا دون أن نتحدث عنه. نعم، حدث شيء ما خلال هذه الزيارة، خديعة، صفقة ما، عُقدت أمام ناظرينا وكنا متواطئين فيها واجبرنا الطرفين على الموافقة. كان لأمي بيت رأيناه بأم أعيننا. حسنًا! ربما لم نره إلا قليلًا إنما أبصرناه، وهذا البيت أُختلس منها بضربة واحدة، سُحب على نحو نهائي بموجب حكم غير معترف به وثقيل الوطأة. لم يعد ثمة بيت، لقد فقدنا بيت أمي للتوّ وهذه الأم التي كانت تقف في مواجهتنا منذ قليل مازالت على جمودها الآن، فكيف كان عليها أن تتصرف وقد بترنا هذا الرابط الذي يربطها بطفولتها وأرضها وبلدها؟ هذا ما كنا نفكر فيه أنا وأخي.

لم نقم بجولة في المدينة كما كان متوقعًا. سلكنا نفس الطريق الإسرائيلية السريعة والممتعة للرجوع إلى غزة. كنا نتأمل شمس الأصيل بضوئها

الواهن وكان بإمكاننا أن نتبادل أطراف الحديث ونمزح، بيد أننا لم ننطق بحـرف. كانت الضجة الفظيعـة التي تصدر عن ابـن خالتي هي كل ما يتردد في السيارة، صوت غريب يُعرف بالشخير الغزاوي وكنا لاحظنا أن الرجال "الغزازوة" يصدرونه حين يصلون إلى سـن معينة. يفعلون ذلك دون اسـتحياء كأنها كانت احتفالية وصولهم لسن البلوغ. أخذت أتبادل النظر مع أخي من وقت لآخر وتعبير بالاشمئزاز مرتسم على محيانا. كنا حريصـين على ألا تضبطنـا أمي لأنها لن توافق عـلى ذلك فهي تصرّ على ضرورة مراعاتنـا الأصول مهما كان الشـخص الذي أمامنا، إنها واجب مقدس علينا ومقياس على ما يجوز وما لا يجوز. إنما، هل احترمت هي الأصول في بير السبع؟!

خلال الأيام التالية كانت أمي قليلة الكلام شاردة الذهن كأنها منقطعة عنـا وعن محيطها. كانت تتصرف كأن شـيئًا لم يكـن وحين تتحدث مع شـقيقاتها وبناتهن والجارات لم تكن تشير على الإطلاق، خلال حضورنا على الاقل، إلى زيارة البيت.

في بعض الأحيان كان صوتها يصلنا وهي تدندن أنغامًا لأم كلثوم وعبد الوهاب. بدا لنا موقفها بعد الزيارة غريبًا وتساءلنا أنا وأخي في أعماقنا إن كانت لا تتعمد أن تبدو على هذه الخفة واللامبالاة، فهي لم تكفّ عن ترديد قصة بيتها كأسطوانة خلال سنوات. وهذه القصة لا يمكنها أن تنتهي هكذا كفيلم تدخلت الرقابة عند نهايته، لقد أصابنا موقفها

بالضيق ولكن التطرق للموضوع كان مستحيلًا بحضورها. وحتى فيما بيننا لم نكن ندري كيف نسرده ولا من أي طرف نتناوله. لقد لُمتُ أمي سنوات بعدها، قلت أنها رمت ببيتها في وجوهنا وقلوبنا ثم تركتنا وحدنا نتجرع هذا السمّ، وها نحن اليوم أيضًا ما زلنا نتظاهر بأننا نسينا ما جرى. لكننا أدركنا بمفردنا فيما بعد أن أمنا كانت تعاني وأن حزنها كان دفينا وكأنها فارقت وأدركت الفراق وهي تكتم النوح والدموع.

2

رائحة البلد

خلال إقامتنا في غزة، كنا نذهب بانتظام إلى الشاطئ ونلبي دعوات مستمرة لتناول وجبات شهية. يااللفتة ويا للماندي، يااللِقدرة المطهية في وعاء فخاري داخل تربة بيارات البرتقال، يا لصواني النمورة والكنافة. يا لكل هذه الأطايب التي كانت تُحضّر خصيصًا لنا. وتكتمل سعادتنا ونحن نثير إعجاب من حولنا بلغتنا الفرنسية التي كنا نتحدث بها فيما بيننا!

كل شيء يبدو كما لو أننا لن نرحل أبدًا، كما لو أن فلسطين لم تختفِ وستغدو بلدنا من جديد. لننس الجزائر ولننس المسافات وكل حياتنا الماضية!

عاد أبوانا معًا إلى أرضهما بقرب الأهل، وأحاطت بنا الخالات والعمات والأخوال والأعمام والأقرباء والقريبات. وحين كنا نفتح باب المنزل

للخروج، لم نكن نشعر بأننا نغادر بيتنا. الخارج أيضًا كان لنا، شوارع المدينة الرملية وطرقها المعبدة المليئة بالحفر. الأولاد الذين يلعبون والجيران الذين يطلّون من النوافذ والشرفات ويشيرون نحو هؤلاء "المغتربين". كل هذا كان بيتنا وكان يخصنا. كنا المغتربين الذين رجعوا وهم يتمنطقون بالفرنسية ويتحركون كالأجانب ويرتدون الملابس الأنيقة كأنهم فرنسيون عن حق وحقيق. إنما مع كل تصرفاتنا المغايرة ومظهرنا المختلف ظللنا "أولادهم". نعم، هكذا كانوا يدعوننا نحن القادمون من الجزائر.

في غزة، لحظنا وللمرة الأولى في حياتنا أن أبوينا يعيشان متناغمين مع المحيط، ومرتاحين على نحو لم نعتده. لقد توقفا عن سماع نشرات الأخبار، ويستمتعان بعد قيلولة طويلة بالقهوة والشاي والمعمول. هما أيضًا لديهما عائلة تسهر على راحتهما وتحضر لهما الطعام وتدللهما. عائلة مغروسة في هذه الأرض، متواصلة عبر التاريخ، عائلة نسرد تاريخها المشرق والمعتم وكل قصصها من الداخل ومن الخارج ومن كل الأنحاء.

كم هي طريفة ومؤثرة تلك الصورة التي أحتفظ بها عن أبي هذا الرجل القوي البنية! حين يلقي برأسه في حضن أمه وتمسّد شعره وهي تهمس "ابني، يا ابني الحبيب، ليش رحت بعيد يمّا". لم يسبق ووقع نظرنا على علاقة حميمية كهذه لأبي في جزائرنا البعيدة. هناك، حيث كنا نقيم وحدنا مع أبوينا كعائلة صغيرة خارج الزمان والمكان ولا تشبه في شيء العائلة التقليدية التي نراها هنا في غزة.

صحيح أننا تربينا أخيرًا في بلد حرّ وفي طور التقدم إلا أنه كان بلدهم، بلد الجزائريين. أما نحن فعشنا على الدوام نائين، جدّ بعيدين مما كنا نعتبره بلدنا، البلد النائي المعلّق الذي ينتظر مع أمتعتنا المركونة دائمًا على الرفوف وفوق الخزائن. في بيتنا كانت نشرات الأخبار تتردد طوال النهار وبعضًا من الليل. البي بي سي، صوت أميركا، صوت موسكو، صوت العرب، إذاعة الجمهورية الليبية. كان أبوانا يتنقلان من محطة لأخرى في عملية بحث دؤوبة عن الإذاعة الأقل تشويشًا، يعلو الصوت ويعلو ثم يغيب. كل الأصوات، كل الإذاعات كانت بنظرهما سيئة على الدوام. يحاولان ويحاولان ثم حين نصل لبعد منتصف الليل تصل إلى أسماعنا أنا وأخي تعليقات أبي المتذمرة وعبارات أمي التي غالبًا ما كانت تنتهي بقول مأثور:

- "آه، يا أولاد الكلب! كله زفت!"

لم تكن السياسة فقط محطّ اهتمام أمي وأبي، كانت ثمة قضايا أخرى تتخلل نقاشاتهما السياسية. وكان الحوار بينهما غالبًا ما ينعطف نحو الحياة العادية اليومية. فيتوقفان لبعض الوقت عند وجبة الغد والتسوق ثم يمران سريعًا على زواج الجارة ويتابعان لبعض الوقت قصص زوجين من أصدقائهما وبخلهما الذي يعوق استمتاعهما بالحياة. كانت همهماتهما وكلماتهما تصلنا وتثير فينا شعورًا بالاطمئنان كأنها تهدهدنا فما نلبث أن نستغرق في نوم عميق. كنت وأخي قريبين ومتفاهمين في ذلك الحين

لدرجة أنه لا يمكنني إلا الحديث بصيغة نحن حين أسرد ذكريات تلك المرحلة. لكن هذا لن يدوم!

ذلك الصيف كنا في غزة والأمور تسير على منوال مغاير، فلا أخبار ولا تعليقات. كانت الحياة مباشرة في عفويتها، نأكل جيدًا وننام كفايتنا ونذهب إلى البحر بسيارات أقربائنا الأكبر منا سنًا. كان هؤلاء فخورين بصحبتنا وبالأحرى بعرضنا على الآخرين، يزمّرون في الشوارع ويهتفون لرفاقهم بكل فخر:

- "هدول جايين من برا".

يصفّون السيارة على الرصيف، لا يهم أكانت في الصف الثاني أو الثالث، يكفي أن يطلقوا زماميرهم لتأتينا سندويتشات الشاورما أو بوظة الحليب بالفستق اللذيذة. قليلًا ما كنا ننتبه حينها لدوريات الجنود الإسرائيليين وهي تجول في شوارع المدينة بسيارات الجيب. لكنهم حين يجوبون الشوارع راجلين وهم يخبطون الأرض بأحذيتهم العسكرية كانوا يبدون، خلافًا لنا، متوترين. تفضحهم نظراتهم القلقة ورؤوسهم التي تلف في جميع الاتجاهات وكأنها مثبتة على زنبرك. كان يكفي أن نوقع شيئًا على الأرض أو نقوم بحركة مفاجئة لاثارتهم كي يقفزوا ويتخذوا وضعية التهيؤ. تلك كانت لعبة الصغار المفضلة يرمون غرضًا ما حين تمر دورية فينتفض العساكر في حركة استعداد لإطلاق الرصاص. حينها ينفجر الأولاد الاشقياء بالضحك وهم قد أمسكوا باليد برهان مقدرتهم

على تخويف الجنود، ويبدأون بالركض بعيدًا حتى لا يمسكوا بهم. وإن حصل ووقع طفل في قبضتهم فسيلقى عندئذ نصيبه من صفعات على الوجه وركلات على المؤخرة بالأحذية الثقيلة. ذلك كان يحصل في البداية، إنما فيما بعد لم يعد الجنود يتوانون عن ملاحقة الصغار بطلقات الرصاص الحي. رصاصٌ كان يخترق أجسادهم الصغيرة أو رؤوسهم ويقذف بهم أرضًا وقد فارقوا الحياة.

كان مشهد الجنود الإسرائيليين في مستهل إقامتنا يثير فيّ مشاعر متباينة، وحين كانوا يعبرون بجانبي يخفق قلبي بعنف ويضطرب كياني وأكلم نفسي "هدول هني اليهود". أردد هذه الكلمة مرات عدة في داخلي وألفظها أحيانًا لأجرب أثرها عليّ. كنت أكرر أيضًا عبارة "هدول جنود احتلال... احتلال". لا أعرف إن كنت أدرك جيدًا ما تعنيه هذه الكلمة بيد أنها كانت توجعني في العمق. كانت توحي لي أننا كنا أدنى منهم شأنًا، وبأنهم يتفوقون علينا ويحكموننا. كان هؤلاء الجنود يحتلون أرضي ويسرقون هوائي ويرعبون الجميع بزيّهم العسكري وأسلحتهم. كنت متأكدة بأن قلوب الناس تتسارع نبضاتها عند ظهورهم، وحين يتظاهرون بعدم رؤيتهم كانوا في الحقيقة يرونهم ويحسون بوجودهم.

كنت أتساءل عن سبب وجود هؤلاء المحتلين والمتسلطين في قلب المدينة، مدينتي. وإن كان لديهم فيها خالات وعمات وجدات وأقرباء وبيوت. وإن كانوا ينتشون مثلي برائحة الخبز الساخن المعجون والمخبوز

بيد الأمهات والجدات، الخارج لتوه من أفرانهن وأحضانهن. أتنتظرهم يا ترى رائحة القهوة بعد عودتهم من الشاطئ، القهوة الشهية التي نحضّرها بحب ونتذوقها بطرف اللسان فيما هي تغلي ويتصاعد بخارها وتهبّ رائحتها؟ لا، لا... بالتأكيد لا يعرفون كل هذا وليس بوسع أمهاتهم وخالاتهم إلا العيش هناك في تل أبيب، في برودة تلك المدينة، في لا إنسانيتها وبيوتها التي في اللا مكان. كنت على يقين بأن قهوتهم تحضر بلا نار في جهاز "سب" المودرن الذي اندفعت أمهاتهم لاقتنائه ليدخلن العصر الحديث. جهاز يصنع قهوة دافئة بلا طعم، تعدّها في شقة بلا روح أمّ بلا عمر لابن خائف مع خوذته ورشاشه وأحلامه البعيدة، أحلامه المجهضة.

يا ربي، يا ربي! لأتوقف عن هذا الهذيان الذي يجتاحني كنهر جارف وسيلقيني في هاوية لا أعرف كنهها. لأعد إلى هذا الجندي التائه تمامًا هنا، وأمه التي قد تكون في الخامسة والأربعين، ربما هي لطيفة إنما بالتأكيد مرعوبة تحت ثقل ديانتها وتاريخها وتنقلات شعبها. مرعوبة لدرجة تجعلها لا تركّز إلا على العرب المحيطين بها، فتزداد كراهيتها وتتصاعد فتشعر حينها بالاطمئنان، كأن الكراهية جدار يحميها. أما جهاز "سب"، أقسم بأني لا أشعر نحوه بشعور خاص لكنني لا أحبّ قهوته، ولا يؤثر امتلاك صديقاتي له من حبي لهن حتى لو قدّمنَ لي قهوة مصنوعة فيه فأنا أشربها دائمًا بهدوء، بلا مشاكل ولا تعليقات!

شخصيًا لست ضد هذا الجندي وأمه ولا جهاز "سب" ولا شقتهما في

تل أبيب ولا حتى بيته في بير السبع إن وجد. رغم ما يكلفني قول ذلك من جهد، فأنا غالبًا ما أشعر بالتضامن مع بني جنسي، أقصد الجنس البشري بلا أي تمييز للون أو لعرق أو لنوع أو لدين. أشعر في أعماقي بأن البشر متساوون لا يختلفون عن بعضهم، ومستعدة أنا البلهاء التي كانت تصدق إعلان حقوق الإنسان أن أقسم بحياتي وبروحي. إنما المشكلة القائمة مع الجندي وأمه وجهاز قهوته وكل هؤلاء الناس، هو سلبهم لحق أساسي مادي ومعنوي من حقوقي. لقد سلبوا بيت أمي مع كل محتوياته وتملكوه متجاهلين كل ما يمثله وما يرمز له في حياتنا. لم يكترثوا لحكايات من عاش فيه، أغراضهم وحاجياتهم وأثاثهم. كهذا الشرشف المطرز الذي ذكرني أخي بقصته فيما بعد، والذي كان موضوعًا تحت طبق أمي الذي حطمته شقيقة اليهودي. حسنًا، هذا الشرشف لم ينجُ هو الآخر من نظرات أمي المحمومة ولسبب لا يمكن تجاهله بالتأكيد، فقد طرزته وبذلت فيه كل جهدها، ولكم افتخرت هي الفتاة الصغيرة آنذاك بانجازه. أمي التي توجهت نحو أخت اليهودي بعيون دامعة ونظرة ضبابية وأخذت تحرك يديها المرتجفتين كما لو كانت تطرز لإفهام هذه الواقفة بمواجهتها أن هذا الشرشف الصغير هو من شغلها وجهدها هي حين كانت صغيرة. كانت تمسك به وهي تنظر نحو أخت اليهودي وطيف ابتسامة خاطفة متواطئة يعبر وجهها. كأنها في لحظة أمل عارمة ظنت بأن قصة الشرشف هذه ستحلّ كل شيء. فها هي امرأة تتحدث مع امرأة أخرى من جيلها عن التطريز، أليس هذا كافيًا لتتفاهما فيما بينهما؟

لكن اليهودي وأخته أخذا كل شيء ورغبا بالاحتفاظ بكل شيء بدءًا من طبق الكريستال إلى الشرشف المفرود تحته على الطاولة المرتكزة فوق أرض الصالة وصولًا إلى أرض بيت بير السبع.

بير السبع المدينة الصغيرة عند مدخل النقب، واحدة بين أخريات. كلها فيها بيوت، كلها بقصص شراشف، كراسي، أطباق، صبيان وبنات وأهالي وناس. لكن، كل شيء ضاع، كل شيء تحطم.

نحن الذين أضَعْنا كلَّ شيءٍ وضِعْنا.

3

عودة المنفى

سنوات مرت، ويا لسخرية الأقدار! فقد أطفالي أيضًا بيتًا ووطنًا، كما لو أن الترحال قدرنا المكتوب على درب الآلام.

لعل المنفى وراثيٌّ، دروبه مرسومة لنا واستمراريته مقدّرة على حياتنا، لعل المنفى ملاكنا الحارس، نجمتنا الهادية، وديعتنا الثمينة التي نورثها للأبناء كما لغيرهم. لعل المنفى ثروتنا، يزيل أدراننا ويعيق تجذرنا، تأصلنا في الأمكنة. نأخذ حذرنا منه لكنه يداهمنا ويحيطنا وتتسع حلقاته حولنا. نمشي ونرحل ونهرول، نغادر ونلفّ ونحوم، قد نستأجر بيتًا ونلتقط المتعة قبل هروبها ونحملق بالآخرين لنعزي أنفسنا بأننا أكثر خفة وحرية، نظن أنفسنا أحرارًا بل نبقى أحرارًا وإن فقدنا حكمتنا. المنفى هو هذا، كل هذا،

شريطة ألا نُحبس في مخيم كما قُدّرَ على قومي ولم يُقدّر على أمي.

لنعد إلى أمّ السنوات، إلى ألف وتسعمائة وثمانٍ وأربعين، النكبة مصيبة المصائب، حين انقلبت السماء فوق رؤوس الفلسطينيين. لم تنسَ أمي أيامها التي طالت وطالت وهي تهيم في صحراء النقب مع أهلها مخلّفين كل شيء ورائهم، هاربين مطرودين واثقين من رجوع قادم لا ريب، من بيوت وحياة ستكون بانتظارهم كما تركوها. هذا لم يتمّ أبدًا ولن تتاح لهم سوى الزيارة والزيارة فقط. احتل الآخرون كل شيء، كانوا يترقبون ويتربصون، يلفّون في الجوار ويدورون حول هذه الحيوات التي تتفكك لينقضّوا عليها ويعقدوا مكانها حبال حياتهم هم.

انقلبت الحياة، لم تعد سوى رحيلًا أو انتظارا لرحيل. تعددت أماكن المنفى، هذا المحتال الخبيث الذي يتمركز في أماكن عدة ويتكاثر ولا علاج له. هل سأمتع ناظري يومًا برؤية بيت بير السبع؟ هل سأغدو يومًا ما فلسطينية كاملة، شقفة واحدة عن حق وحقيق؟ الحق لا يتجزأ الإنسان يفعل فقط، لهذا غدونا مشتتين مشرذمين أجزاء مفككة، ملطّخة، داكنة في بعض الأماكن وشفافة في بعضها الآخر. هذا ما يريده التاريخ، تاريخ بلادنا التي نُزع عنها تاريخها.

ها نحن في الحاضر، وحده محطّ اهتمام الآخرين. وحيدون، وحيدون تمامًا ننظر لماضينا نحاول فهمه ونلعنه. اليوم نحن مبعثرون كقطع البازل،

إنما لا نستكين. "بغيضون وقذرون وشريرون"(*) وضعيفون فليكن، إنما مقاومون. نقاوم ونصطحب معنا حكاياتنا لنقصها على صغارنا، كان ياما كان في قديم الزمان...

لكن أطفالنا لايحبون حكاياتنا التعيسة.

(*) Affreux sales et méchants عنوان فيلم إيطالي لـ ايتور سكولا 1976.

4

الزواج وحكايات الماضي

باغتتنا أمي بقسوة ورحلت، حقيبةٌ في اليد ونواحٌ في القلب وغصةٌ في الحلق. غصةٌ رافقتها على مدى خمسين عامًا في مدن غريبة وهي تعيش مع ذكريات لم تفارقها، لبيت الطفولة لهذه الصحراء التي عبرتها ولكل الأمكنة التي لن تراها بعد اليوم.

أسترجع صورتها وهي تحفر الكوسى أو الباذنجان لتحضّر المحشي بالرز واللحم والبقدونس، جالسة أمام طاولة المطبخ وقد وضعت عليها صورة أبيها في زيّه الجليل. وحين كان البكاء يعنّ على بالها مثل طفلة صغيرة، تستحضر ذكرياتها فتنسال الدموع على وجنتيها كجداول. كان هذا غالبًا مايحدث بعد خناقة مع أبي، حين ينتقم منها هو المتحكم المطلق بالمنزل والمنتمي لطبقة اجتماعية أدنى من طبقتها. هي لم تكن سوى زوجة

ضعيفة ومُلامة في أغلب الأحيان، بعيدة عن أهلها وحماية أبيها المهيب وإخوتها. لم يكن أبي فظًّا حقًا بل مزاجيًّا ومستفَزًا بسبب معاناته من تمييز اجتماعي. لم يكن زواجه من أمي غير صدفة من الصدف استغلها، كما يجب!

أمي كانت في صباها فتاة مرغوبة وعسيرة المنال لاسيما لمن في موقع أبي. كانت عائلتها تحتار في الاختيار، مزايدات محمومة عن الجدير بهذه الوردة، أهو فلان أم علان؟ في إحدى نوبات عناده، التي كان وحده يمتلك سرها، تقدم أبي طالبًا يد هذه الجميلة، ويا للمعجزة! تمّ القبول وكتب الكتاب على يد الشيخ فايز. حصل ذلك رغمًا عن كل أفراد العائلة، فما كان من بقية الإخوة إلا أن قاطعوا حفل العرس وخاصموا الشيخ ومعه أمي التي لم يؤخذ رأيها في كل هذه القصة، أما المقاطعة الكاملة فكانت من نصيب أبي. لم يستطع أحد من العائلة استيعاب هذا الارتباط ولا معرفة السبب الحقيقي الذي كان وراء موافقة الشيخ فايز. بيد أن الهمس لم يتوقف في كل مكان حول شقيقة أبي ذات الحسن الباهر والنظرات الجريئة المتحررة من كل حشمة. لعل الأمر يغدو أكثر وضوحًا حين نتذكر ما يعني هذا للشيخ، هو المعروف بشهواته الجنسية ورغباته المشتعلة!

كان أبي في حياتهما المشتركة الجديدة وأثناء كل مواجهة بينه وبين أمي يحسّ على الفور بأنه دخيل على بيئة يجهل تركيبتها. أمي تابعت تصرفها على أساس انتمائها الاجتماعي المتفوق وهذا على الرغم من فقدانها لأملاكها في

بير السبع. لم يكن هاشم سوى غريبًا لا يليق بها ولا بوسطها، إلا أنه كان، مع هذا، زوجها وكانت مجبرة بسبب تربيتها التقليدية والدينية على قبول عبودية هذا الزواج. في بداية الأمر لم تكن تتفوه بكلمة بل تكتفي برمي أبي بنظرة متعالية. كانت نظرة الازدراء تلك تجرحه في العمق، فتحوّلت شخصية هذا المسكين وصار مسيطرًا وحادًا مع أمي لدرجة كانت تدفعها لذرف الدموع الغزيرة والإجهاش ببكاء صامت ما يلبث أن يتحول بعض الأحيان إلى نحيب تحاول إخفائه وخنق صوته.

بعد الزواج مباشرة قرر أبي اصطحاب أمي للعيش مع عائلته، كان أهلها يهزأون ويعلقون بشيء من السخرية بأنه أخذها معه لتعيش مع النّوَر. لكن إخوته وأخواته سروا بالأمر، ليس بالطبع لوجودها بينهم بل لرؤيتها مهيضة الجناح متكلة عليهم، هي الغالية المتمناة والمتنازع عليها، ابنة آل السقا والشوا والغلييني.

عانت أمي الأمرين لكنها حسمت أمرها سريعًا، وبعد نجاحها بالقضاء على مخالب عائلة زوجها التفتت لمواجهة أبي. شحذت أسلحتها الأنثوية وجذبته إلى ملعبها لتواجهه بكل أنواع الحيل الماكرة والكلمات القاسية والمعسولة على حدّ سواء. كانت مواجهة استعملت فيها كل الأساليب وكان المسكين يقاوم في صراع الطبقات هذا. إنما لم يكن من النوع الذي يستسلم، فكان يتخبط في كل الاتجاهات دون أن يغفل بالطبع الاستفادة من قوته الواحدة الوحيدة: كونه ذكر! لقد كان الرجل والزوج، وهذا

ما لم تستطع أمي التشكيك به، أما هي فكانت المرأة والزوجة.

حين ترك أبي فلسطين في بداية الستينات سعيًا لتحسين وضعه الشخصي وبناء نفسه، لم يكن ذلك إلا ليواجه أمي وأهلها الأكابر. كان يريد فرض نفسه أمام نظراتهم المتغطرسة والجارحة وبناء علاقته مع أمي كزوجين. يا لأبي المسكين! كان يظن أنه بهذا يرسم مستقبلًا راسخًا لأسرته الصغيرة، لم يكن على دراية أنه سيجعلنا برحيله ندفع الثمن غاليًا، لقد خلعنا بتصرفه عن محور مركزي في حياتنا، فغادرنا بلدنا وللأبد.

هكذا، يذهب أبي للعمل في بلد نفطي غني، وتبقى أمي في غزة وشعور بالسعادة يملأها واحساس بعودة الروح يغمرها، وهاهي تجد نفسها من جديد في حضن أسرتها الغالية. كنت وأخي صغارًا حينها وخلال سنة عاشت أمي أحلى حياة معنا. كان شقيقها الأصغر عثمان مغرمًا بنا، يصطحبنا معه في سفرات طويلة إلى مصر التي كانت تعيش أمجادها آنذاك. كنا نقيم في الفنادق الفخمة ونتجول على ضفاف النيل ونركب المراكب التي تبحر بنا في نزهات مبهرة، عشنا لحظات لا تنسى من البهجة والمتعة مازلنا نذكرها.

كنا نجهل أثناء تلك الفترة كل ما يحيط بحرب 1948 وبيت النقب الذي أضاعته أمي وأسرتها ونعيش في غزة في منزل جدي القديم في حارة الزيتون، الأغنياء يحظون دائمًا بفرص أخرى! عملت في بيت جدي خادمات قدمن من مخيمات لاجئين نُصبت بسرعة حول غزة وسكنها فلسطينيون طردوا من بيوتهم خلال حرب النكبة.

كانت نظرة أمي والآخرين من حولها لهؤلاء الناس تعكس تفكيرًا طبقيًا لا يدير بالا لعوزهم أو معاناتهم! هذا مع أن أمي قطعت الصحراء معهم وتحملوا سوية طلقات الإسرائيليين في الحرب، ومرضوا معًا وتعرضوا للبرد والجوع والحرّ وعانوا من القيء والاسهال سواء وأفرغوا أحشاءهم في نفس الأمكنة، وفوق هذا يعانون من نظرة موحدة تجاههم من قبل اليهود فهم ليسوا سوى فلسطينيين تجب مطاردتهم بأي ثمن. لكن الفارق يكمن في أن أمي وعائلتها وصلوا غزة بعد شهرين من التيه ليجدوا بيتًا بانتظارهم، أما أولئك فلم يحظوا بمكان آخر وكانوا مطرودين من أماكنهم وحياتهم الماضية، يعيشون في البؤس، في الغبار، في المخيمات.

صباح أحد الأيام تسلمت أمي رسالة من أبي يطلب منها اللحاق به في جدة. كان يسكن شقة فاخرة واسعة تطل على الميناء ويعمل في أحد المصارف، أخبرها أنه وجد لها عملًا كمعلمة في مدرسة "الحنان" التابعة للملكة. فكرت أمي طويلًا، فهي وإن كانت محاطة في غزة بعائلتها الحبيبة ويحظى ولداها بالدلال من الخالات والأخوال، فإنها تبقى امرأة شابة... تشتاق لزوجها على الرغم من كل شيء. علاوة على ذلك كانت تدرك أن الشعور بالواجب الذي لُقن لها وهي صغيرة يملي عليها تربية أطفالها تحت سقف أبيهم. وقد يكون هذا الزوج وهذا الأب اجتهد ووجد الفرصة لينجح هناك. ولعلها تساءلت في أعماقها إن كانت تتشوق لعيش مغامرة زوجية حقيقة بعيدًا عن التزامات محيطها، وإن كان اكتشاف الخارج

لن يمنح علاقتهما نفسًا جديدًا بل وحبًا، قد يكون هذا ممكنًا، لم لا؟

قررت ترك غزة للعيش في جدّة مع أبي وأصرت جدتي على مرافقتنا. كانت تخشى بألا تتحمل أمي الطائشة، كما كانت تتهمها، المسؤولية فلا تنتبه لنا فيكون مصيرنا السقوط في الماء! غادرنا بالباخرة ومررنا بمصر وعبرنا البحر الأحمر قبل أن نصل إلى العربية السعودية. كان أبي ينتظرنا في ميناء جدة بكامل أناقته مرتديًا بذلة بيضاء ونظارات شمسية. كم كان مهيبا بلباسه وهيئته! لعله رغب بترك أثر في نفوسنا، وقد نجح. لكن، ما إن وقع بصره على جدتي حتى تبدلت تعابيره وشحب لونه! لم يتوقع مجيئها ولم ينبئه به أحد. كان واثقًا بقدرته على مواجهة نظرات أمي إنما لم يكن مسلحًا بعد بما فيه الكفاية لتحمل نظرات جدتي الأشد فظاعة. كل ما فعله حينها الكزّ على أسنانه والتزام الصمت. حين كبرنا أدركنا أن نظرة جدتي وأمي لأبي كانت مبالغًا فيها واكتشفنا أن عائلة أبي لم تكن أقل قيمة كما أوحي لنا إذ كانت معروفة وأن لم يكثر فيها الوجهاء فقد كثر فيها العلماء والمجاهدون.

كان أبي يعمل مديرا للحسابات الجارية في مصرف سعودي هام، وتجلى نجاحه في مهنته بالشقة الرحبة الجميلة التي استقررنا فيها. سُجلت وأخي في "دار الحنان"، روضة أطفال الملكة حيث كانت أمي تدرّس وحيث يدرس أولاد الملك وأقربائه وإخوته وأخواته. كنا من حين لآخر ندعى للحفلات التي تنظمها العائلة المالكة لمعلمي المدرسة فنصادف هناك مسز

روز واليزابيث وبيتي ومدرسات أخريات أميركيات وبريطانيات.

كانت أمي معلمة كفؤ فتمتعت بتقدير خاص من العائلة المالكة، ولهذا كان يسمح لنا أحيانًا بمرافقتها للقصر في فترات بعد الظهيرة، نجلس في قاعات واسعة أرضها رخامية وهواؤها مبرد، وتتشعب الأحاديث مع نساء العائلة من شقيقات الملك وخالاته وزوجاته وبناته وقريباته. كنّ يرتدين عباءات سوداء فخمة ويبدون كظلال متسللة حين يعبرن ممرات القصر، ولكن ما أن يدخلن مكانًا آمنا مخصصا للنساء فقط حتى يتبدل سلوكهن في التو واللحظة، يُرفع الحجاب فينسدل الشعر الأسود الغزير، وتُفكّ أزرار العباءة فتظهر ركبة بيضاء شفافة كألالماس. كنت ألف حولهن دون أن أبتعد عن أمي، ألتقط بعضًا من محادثاتهن، تصل أسماعي كلمات وعبارات عن رغبة الزوج المحمومة بهن وبالشقراوات الإنكليزيات والأميركيات على وجه الخصوص! كن ينظرن للمرأة الغربية كأنثى جُبلت خصيصًا للرجل بعريها وحريتها، كأنثى لا ترافق زوجها للعمل في البلاد النفطية إلا لغرض تحريض رغبات الرجال العرب!

أولئك الغربيات يأتين للمملكة على الرغم من صرامة قوانينها، هذا أقل ما يمكن أن يقال، إذ يعرفن أن عليهن تغطية رؤوسهن ما أن يخطين خارجًا، وأن عليهن تحمل المطوعين المكلفين بحماية "الأخلاق" في الشوارع بضربة سوط أو بلعنة. يلفّون المدينة ليل نهار باحثين عن خصلة شعر هاربة وثوب لا يغطي الكاحل، يصيحون بهن وبغيرهن كي يغطين رؤوسهن

ويستحين ويخفن الله. ومع صياحهم تنطلق ضربات السوط الخفيفة أو القاسية، هذا يعتمد على المزاج.

منظر النساء المرتديات الأسود بالكامل وهن يُضربن بالسياط في الشارع ظلت محفورة في ذاكرتي، ومع مرور الوقت وشيء من التخيل صرت أرى المشهد كلعبة متبادلة بين النساء والرجال. لعبة حبّ وشبق، رواح ومجيء، نفور وانجذاب، وشيء من مقاومة! ربما كان من الأفضل رؤية الأمور من هذه الزاوية فهذا المجتمع غريب بتناقضاته، بهؤلاء الرجال وضحكاتهم القوية واللزجة ونظراتهم الداعرة، وأولئك النسوة المحجبات منهن والسافرات وضحكاتهن الخفية وهن يضغطن على الشفاه من الألم بعد كل ضربة سوط. مجتمع مدهش بكل هذه الفخامة والإثارة على خلفية من الممنوعات. صورة متكاملة للوحة غريبة فاتنة هي تمامًا الصورة النمطية التي يحبها الغرب كثيرًا.

لم نبق طويلًا في العربية السعودية، ثمانية عشر شهرًا فقط. أصيب أبي بمرض نصحه الأطباء على أثره بترك البلد والهرب من مناخها الذي لم يناسبه.

إلى أين؟

العودة إلى فلسطين؟

كان ذلك مبكرًا بالنسبة لأبي، فوضعه المالي لم يستقر بعد، لذلك قرر الرحيل نحو مغامرة جديدة وستكون هذه المرة في الجزائر.

5

الرحيل من جديد

إلى الجزائر!

حططنا على أرض الجزائر بضعة سنوات بعد استقلالها. عُيّن أبي مدرسًا للغة العربية مثل كثير من مشرقيين وفدوا للبلد بعد قرار السلطات تعريب المناهج. مسألة لم تلقَ إعجاب ولا قبول الجميع، ورأى فيها تيار واسع من النخبة الجزائرية عودة إلى الوراء. المشرقيون الذين وصلوا الجزائر، سواء أتوا من مصر أو سورية أو فلسطين أو الأردن، كانوا كلهم في نظر الجزائريين "مصريين" أكلي الفول، ينادونهم في الشارع "فولة فولة"! كنا بالنسبة لهم مخلوقات غريبة الأطوار مثيرة للضحك تساوم على الأسعار حتى في الصيدليات. لم يكترث أهلي والآخرون على الإطلاق لهذه السخرية

ولم يعتبروا أنفسهم معنيين بتلك النظرة، بل على العكس كانوا يشعرون بشيء من الاستعلاء على أهل البلد.

بدت مشكلة الجزائر مع اللغة العربية عويصة! بعد مائة واثنتين وثلاثين سنة من الاحتلال الفرنسي كان اللسان قد ثقل واللغة قد فُرمت! بعضهم لم يكن يتحدث سوى الفرنسية، وآخرون كان كلامهم خليطًا من العربية والفرنسية، تتيه عنهم الكلمات فيتلعثمون بها كما لو أن شيئًا من أحشائهم قد اقتطع، أو تأخذهم الحيرة فيبدون كمن يدور في فراغ أو ينحت في صخر. كأن اللغة مبعث فخرنا ومصدر مجدنا ووسيلتنا نحن عرب المشرق، قد بُترت من وجودهم ورميت بعيدًا!

حططنا الرحال في الرابع والعشرين من كانون الأول في الجزائر بلد المليون شهيد. دخلنا من شرق البلاد محشورين في حافلة ينبعث من محركها ضجيج فظيع. لم تكن كحافلات اليوم نظيفة ومبردة ومجهزة بدورات للمياه، لذلك كانت تضطر للتوقف مرارًا وتكرارًا ليتمكن المسافرون من قضاء الحاجة! كنا استقللناها في جدة لتقودنا إلى باخرة عبرت بنا البحر الأحمر، ثم مررنا بمصر وليبيا وتونس ودخلنا الجزائر من مدينة تبسة.

بمجرد دخولنا الجزائر، أصيب والديّ بصدمة! فهذا البلد المُحمّل بعبق التاريخ له في قلوب المشرقيين مكانة خاصة بسبب بطولات أهله في حرب التحرير، لكن الفرق بينه وبين المشرق كان كبيرًا! بدأت ملامح الاختلاف تنكشف تدريجيًا عند المرور بليبيا وأخذت تتضح أكثر في تونس لتبدو على

اشدها في الجزائر. لقد كان المغرب العربي مغايرًا تمامًا لكل ما صادفناه وعرفناه، كانت ملابس الناس وحركاتهم من أبرز ما آثار انتباهنا! بدوا أكثر رزانة في زيهم ولا سيما مع "القشابيا" المصنوعة من وبر الجمل والتي كان الرجال يرتدونها في الشتاء، وكانت طريقتهم غريبة في الاستناد على شجرة أو جدار اثناء وقوفهم إذ يبدون منحنين جامدين ساكنين، كانوا قليلي الحركة والايماء عند الكلام على عكسنا نحن المشارقة.

شكّل الوصول للجزائر صدمة جديدة لي ولأخي، كانت بلدًا جميلًا مضيئًا ومفعمًا بالأمل في تلك الأيام، وقد بانت لنا في فترة وصولنا كأي مدينة أوربية بطابعها الغربي واحتفالاتها بأعياد الميلاد ورأس السنة. المحلات تشعّ بزينتها وبشجرة العيد وكل أنوع الحلويات الشهية المعروضة في واجهاتها. كانت لغة الناس غريبة على أسماعنا ولم نكن نفهم كلمة من أحاديثهم التي اختلطت فيها العربية والفرنسية والقبائلية في مزيج عجيب.

استقر بنا المقام عند خالي وخالتي اللذين كنا نعيش معهما في غزة. كانا محبين للسفر واكتشاف العالم. ذهبا أولًا للمغرب، البلد الذي يوحي لنا كمشرقيين بكل ما هو مثير وجذاب وبعيد عن المتناول، إنه البلد حيث فرنسا حاضرة بقوة وحيث يعيش عرب وبربر ومسلمون. لكن، كم هم مختلفون!

بقي الخال والخالة هناك بعض الزمن، ثم غادرا للجزائر وأتاهما الحظ للمشاركة في حماس الجزائريين عشية الاستقلال. عند وصولنا

أقمنا عندهما في حي البيار الراقي. كانت مشاعر الكره التي طبعت اللقاء بين الصهر وعائلة أمي لا تختلف في حدتها عن تلك التي طبعت لحظة الوداع بينهما حين غادر غزة. لقد بقي أبي بنظرهما شخصًا فظًا متواضعًا لا يليق بمستوى أختهما. كان خالي عثمان يخاطب أمي بالقول "أنتِ أختي من لحمي ودمي ستبقين هنا مع أولادك مهما طال الوقت، أما هو، فلا أقدر على احتماله!"، وغالبًا ما كان يلحق كلامه بعبارة "ليسامح الله الشيخ فايز الذي فرض علينا هذا الزواج".

لكنهم وحفاظًا على المظاهر عثروا لأبي على عمل كمعلم في بلدة تبعد أربعين كيلومترًا عن الجزائر العاصمة. اعتبرت تلك المسافة الحد الأدنى المطلوب تواجده بين الرجلين! هكذا، عشنا عدة سنوات في بلدة صغيرة ولكنها قريبة من العاصمة. كانت خالتي وخالي يأتيان لزيارتنا مرة في الأسبوع محملين بالهدايا ثم يغادران بعد جدال مع أبي في أغلب الأحيان، وكان هو يعقّب "برجوازيين أرذال، لاحقيني على طول! أنا على أية حال سأرجع إلى فلسطين".

لكن الحرب قامت في يوم من عام 1967. في الخامس من حزيران تقرر مصيرنا النهائي وبات المنفى لنا أبديًا لا رجوع عنه. احتلت إسرائيل غزة وما تبقى من فلسطين، كما قرر الإسرائيليون -وكانت لديهم كل القدرة على فعل هذا- بأن لا حق بالعودة لكل الفلسطينيين الموجودين خارج فلسطين. وهكذا مُحينا بكل بساطة من الوجود، نحن كلنا أمي وأبي وخالي

وخالتي وزوجة خالي وابنتاه وأخي وأنا وجدتي وكل عائلتي، لم يعد لنا وجود. نحن اللامرئيون، الممحيون من السجلات بل الممحيون بكل بساطة، علينا تدبير حالنا لنجد هوية أخرى! ولم نكتف بسوء التصرف لتحقيق ذلك بل أفلحنا في فعل ما نال إعجاب الإسرائيليين بالتأكيد. كان فشلنا تامًا، فلسطينيون كنا وفلسطينيون بقينا، غير قابلين للذوبان في محيطنا العربي مثل أعواد القرفة وجذور الزنجبيل.

سنوات طويلة تمر في الجزائر، نحتفظ بمشاكلنا الصغيرة والكبيرة، تصحبنا تؤنسنا في أيامنا، جدال جهنمي مقيت بين أبي وأمي وحياة مجهضة لأمي وأخبار من فلسطين سيئة، سيئة على الدوام.

بلد يختفي وشعب يمسي غريبًا على أرضه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

6

نانت، اختفاء آخر

الأحد 22 ديسمبر في مدينة نانت حيث حطّ بي الرحال من ثلاثة أسابيع فقط. جاءني اتصال هاتفي وتبعته برقية: "رحلت أمنا، عاجل يجب القدوم".

- آلو... آلو

ألهث، أتلعثم بالكلمات.. على الطرف الأخر من الخط تصلني طرقات مطارق على باب بيتنا في الجزائر، ثمة من يحاول خلع هذا الباب الذي سبق وحصّناه لحماية حياة علي من الرصاص والسكاكين والفؤوس التي كانت تجول هنا وهناك وترقص رقصاتها الجنونية أثناء سنواتنا الأخيرة في الجزائر. طرقات تلاحقني في كل مكان، على باب نانت أرض اللجوء، في الجزائر

على باب مقاوم، في بير السبع على باب لا يفتح، اليوم تصرعني طرقات القدر. رحلت أمي وتحلل جسدها لكن المنفى باق هنا، قابع دائمًا هنا.

يعودني مشهد أمي وهي ملقاة في مشرحة باب الواد. أزحت طرف شرشف كان يغطي جسدًا بات جثة متعفنة، جيفة متحللة. سبق وأنذروني بأنه لا يجب النظر إلى الموتى احترامًا لهم، لكنني كنت قليلة الأدب ونظرت لتعفن هذه التي انجبتني كما شممت أيضًا رائحتها النتنة. نعم، أعتقد أنني فعلت هذا. في الحقيقة لم أعد أتذكر، لم أعد أذكر بالضبط ما فعلته عيناي ويداي بجسد أمي.

إنما، هل كانت هي حقًا؟ هي التي لم تستطع أبدًا العودة لديارها، هي وميلها المرضي للرجوع، هل ماتت؟ كم انتظرت حالمة قبل موتها العودة لمراتع الطفولة ولأحضان الأقرباء والأصدقاء. عودة كانت فرصتها تتضاءل مع مرور السنين ويحلّ محلها تحويل فالتفاف، التفاف فإياب... ثم التفاف بدون إياب.

ماتت. رحلت وحيدة، بعيدًا هناك، أكان هذا في 12، 15، أو 17 ديسمبر؟ لا أدري، لا أحد يدري، كانت برودة تخيّم على المكان ولا حرارة سوى تلك المنبعثة من مدفأة الغاز. حقيبتها الحمراء كانت هنا، سامسونايت كبيرة اشتريناها في دمشق صيف 1975، هذا الصيف الشهير الذي زرت فيه بيت النقب. ثمة أكياس أيضًا، وضعت فيها كثير من الاشياء، أثواب، أقمشة، كتب وأغراض أخرى منوعة، لم يعنِ كل هذا سوى أنها لم تعد

ترغب بالبقاء هناك، في الجزائر. زوجها كان قد رحل وولداها كانا في الشتات، شتات بين ألف شتات، وهي الآن لا تفكر إلا بالعودة. سترجع لفلسطين. لا تكترث إن كان هذا ممكنًا أم لا، لم تعد ضرورة لبقائها هناك، اتخذت قرارًا بالمغادرة، كان قرارها الدفين هي التي كانت ترفض دومًا كل القرارات، سواء تلك التي اتخذها عرفات أو منظمة الأمم المتحدة أو أوسلو أو كلينتون ونتنياهو. كانت وحيدة هناك ولم تعد تصغي إلى أي منطق.

ستُسأل أمي يوم القيامة لمَ تركت ديارها في بير السبع، في غزة، في مصر والسعودية وبلدان المغرب، بل لمَ غادرت بيتها؟ ستُسأل عن سر معاناتها من الروماتيزم وآلام الفقرات، عن سبب انجابها أولادًا. لمَ لم تعد أبدًا لديارها، ولمَ كسرت أخت اليهودي طبقها، طبق بير السبع. يوم الحساب يشبه كتاب تاريخ مدرسي، لا يحتوي على كل شيء والأهم من هذا لا يطرح الاسئلة المناسبة. بحثت في هاشيت إحدى دور النشر الفرنسية عما ذكروه عن قضيتي وعن تاريخ أمي وشعبي، هذا التاريخ الذي أعرفه بالكامل ولمست لمس اليد معاناة أمي منه حتى تعفنها. لكن هذه الكتب لا تقول كل شي، إنها تجمّل وتسيء وتقبّح. لا أنتظر منهم معرفة قصة أمي وحكاية منزلها الضائع وكل ما تبقى، لكن على الأقل ألا يشعروني بكل ذلك الإحباط حين قراءة رواياتهم الخاصة للأحداث! لم أحاول اكتشاف مطبوعات دور نشر أخرى فليس لدي أية أوهام بهذا الخصوص، أوهام حول صحة الحقائق كما أراها أنا على الأقل. على كل ثمة ما أنا متأكدة

منه تمامًا وهو أن التاريخ لم يُكتب بعد من وجهة نظر المهزومين، والذاكرة الوحيدة المتبقية تدور في رؤوسهم كغيمة تجمّعت من دخان كثيف.

احتفظت من أمي بذكرى صغيرة. آه! أيضًا هذه الرائحة لجسد متحلل. جهاز الراديو هذا الذي كان على الدوام قريبًا من أذنها لسماع الأخبار، الشرق الأوسط بالطبع لكن أيضًا أخبار المآسي الأخرى في التاريخ في جنوب أفريقيا وزيمبابوي وأنغولا وكوبا... باختصار كل أصدقائنا الذين يعانون ويلتعنون وكل حركات التحرر التي نشعر بارتباطنا معها. تعودني هذه الحقيبة الحمراء التي حضّرَتْها قبل موتها وطوت فيها بكل عناية منسوجات رائعة من فلسطين والسعودية ومصر وغيرها، ومعها ملابس طهور أخي وابني وثياب الحج وثوبين أو ثلاثة من عرسي، كل شيء انتظارًا للعودة مرتبا في سامسونايت قديمة حمراء من سوق الحميدية، في حقيبة الذهب. حقيبة العودة الأبدية.

كان أخي في أقصى حالات الغضب والألم، يفرّغ الزبالة ويفتش فيها محاولًا فهم سبب موتها. لم يعد هو، يبدو تائهًا منهكًا بنظراته الضبابية وصوته العالق في حنجرته. بقي صامتًا خلال الأشهر التي تلت رحيل أمي، لقد فقد صوته. بأي شيء ينفعه الصوت على أية حال؟ ليتحدث مع من؟ لم تعد هنا، هي التي كانت تتشرب كلماته، هي التي كانت تعبده، تخاطبه: "ضنايا، ضنايا فلذة كبدي! ضوّي، وحيدي، ابني الوحيد!". كانت تكنّ له حبًا جارفًا، على حسابي كما كنت أحس أحيانًا، لكن علي

أن أذكر أنني كنت جافة معها، أضع المسافات بيننا وأجبر نفسي على لعب دور القاسية المتمردة. أجهل دوافع تصرفاتي معها ولا استطيع شرحها حتى لنفسي. لعلني كنت أقاوم حبها وعطائها ولطفها الدائم، لعلني تقت لإثبات وجودي وذاتي بعيدًا عنها، لأقف في مواجهتها خلافًا لأخي اللين والمتساهل معها. يا لأمي التعيسة! أقولها الآن، كم عارضتها! كم كنت تعيسة وحمقاء!

وما ينفع قول هذا الآن؟ أمي لم تعد.

بعد موتها انفصلنا أنا وأخي، حيرتنا أمام غموض وقسوة هذا الموت جعلتنا نكره بعضنا. كل هذا الحب الذي كنا نشعر به تجاهها وتجاه بعضنا البعض، انقلب فجوة بيننا بعد رحيلها. كما لو كنا مسؤولين عن موتها وكل منا يلقي بالمسؤولية على الآخر. نعم كان موتها خطيئة لن تمحى أبدًا. انغلقت على ذاتي وأحزاني، كنت أغمض عينيّ وأضغط على نفسي وأحاول الاستقرار في حياتي بنانت على نحو أعمى. أبقى أحيانًا جالسة ساعات أمام النافذة أحملق في الفراغ أحاول أن أخفي عن أولادي معاناتي وأحاسيسي. أخي استيقظ من سباته بعد شهور ليفتح طاقة أخذت تدر عليه أموالًا طائلة، كان كملعون يركض ورائها بهوس وجدارة أيضًا.

لكن منذ ذلك الحين بات قبر أمنا بيننا، قبر لم نغلقه.

أظل أتساءل هل تناولت ما جعلها تموت على هذا النحو؟

أمي، أمي، ماما... هذه التي كانت جبلًا وعرًا، حاجزًا صلبًا، من كانت حقًا؟ مؤسسة مفتتة منهارة؟ فلسطين عجوزة وجميلة تغدو قبيحة في لمح البصر؟ لماذا أحسّ بحاجتي الماسة إليها اليوم؟ ألأني أشيخ؟ ربما لكن ليس فقط، الأم والوطن الأم مرتبطان معا بالألم وها قد رحلا معًا بكل مأساوية. اليوم حين أسير في شوارع نانت فإن شبحها يطاردني، تلفني بجسدها، بيديها الناعمتين الحنونتين، بوجهها الجميل وتنهداتها، بصور بيتها وأبيها.

الأمُّ لا تغادرُكَ أبدًا.

هذا ماتعلمته ومابتّ أدركه.

7

ما وراء البيت

تنشغل ماري وزوجها شارل في بيتهما الريفي، نشاطهما لا يتوقف ومشاريعهما تسير على قدم وساق، يعشقان تذوق النبيذ والأجبان والحلويات من كل نوع وشكل. بيتهما على الطراز العتيق تنتشر من حوله زهور وورود وأشجار تتطلب عناية دائمة. لا يكلّان ولا يملّان. عائلتهما كبيرة ومتفرعة تميزها الطيبة والود والمحبة، يجتمعون لأي مناسبة مهما قلت أهميتها، سواء كانت أعياد ميلاد أو عماد أو أي حفلات يختلقونها ليتشاركوا البهجة.

قررت أن أترك ورائي معرفتي النظرية بفرنسا والفرنسيين في سعيّ مني للتعرف على فرنسا الحقيقية، فرنسا الحياة اليومية.

كان شارل وماري يضمدان جراحنا ويساعداننا على البقاء وتحمل

المعيشة. وكلما كان لهيب نيراننا يخبو نستدير نحوهما أو يبادران بأنفسهما ونعزم على اللقاء. كان يكفي وجودنا بينهما لنحسّ بنبض حياتهما ولتدبّ الحياة في أوصالنا وننسى مآسينا. كنا نحاول تسليتهما بأقاصيص طريفة وحكايات مصيرنا فيتفاعلان معها ويبتهجان، على الأخص ماري التي كانت ضحكاتها ترنّ في أرجاء البيت. وحين أقصّ عليها حكايات أمي واختفائها الدرامي وفقدان بيوتنا لم يكن رد فعلها مغايرًا، إنما مع هذا لم تكن ضحكاتها تزعجني بل، ويا للمفارقة، كانت تسليني وتطمئنني.

اللعنة وألف لعنة على الماضي، بير السبع بعيدة من زمان ولا سبيل اليها، وأمي رحلت... وأنا الآن في فرنسا مع أولاد وزوج "أخذتُه" من الجزائر كنيته "الكنز" وهو اسم على مسمى. اللعنة على الماضي، ما يهم الآن حاضرنا واللحظة التي نعيش. سكنا في شقة أولًا ثم في منزل بجنينة، ونعمل في وظيفة على قد الحال ستتحسن فيما بعد. حياة "زغنونة". نقضي عطلة نهاية الأسبوع مع أصدقائنا الجدد في بيتهم الجميل بعيدًا عن بير السبع، بعيدين كل البعد عن بير السبع. إنها القطيعة مع بير السبع.

لكن يا إلهي، كل هذا هراء. أكذّب على نفسي. لمحت في التلفزيون يافطة مكتوب عليها: بير السبع. نعم مرت بير السبع لثوان قصيرة على الشاشة، وميض بير السبع، أنها حقًا موجودة، كما سبق وحكيت عنها، لم تكن حلمًا.

مسكونة أنا بها. هي هوس يطاردني بلا هوادة. لا، لا، ثم لا... لا أكترث

لا تهمني هذه المدينة. لن أعود إلى هناك ولا إلى غزة، ولا حتى لأي مكان. أطالب بحق السماح لي بالذهاب إلى حيث هي، بتقبيل ريح الصحراء من بعيد والقول أني على علم بما جرى وأن هؤلاء الذين أحببتهم، كانوا هنا واليوم قد رحلوا، هؤلاء الذين أحاطوا حيواتي بهالة سرية خفية، هؤلاء الذين لم أكن أعرفهم ولكنهم حلّقوا فوق دروبي. ناسي وأهلي وأجدادي. كل الذين قادوني عبر التيه والضلال محاولين قدر إمكانهم إرشادي. فليُمنح لي هذا الحق وإلا سأنتفض وأنتزعه بكل ما أتيت من قوة وتصميم.

نفذ صبر أمي في أيامها الأخيرة، أصبحت تخالف وتعاند وتتخذ قرارات فقط لتزعج هذا العالم. بددت حكمتها التي اكتسبتها على مدار السنين وأودعت الهدوء والرزانة جانبًا وباتت عصبية وسريعة الانفعال، تقضي أوقاتها طالعة نازلة، راكضة مهرولة. لا تستقر على حال ومكان وتختلق الانشغالات والمهمات.

كم كنت أفضل أن تبقى في البيت وشال يغطي كتفيها، تخيط لنا الملابس وترقع الجوارب وتحكي حكايا لأولادي. لكنها لم تعد تفعل ذلك إلا فيما ندر. أصابتها نوبات هوس لعيش حياتها في أواخر عمرها، تسلحت بعزيمة لتنفيذ قرارات صعبة المنال بل خطيرة في جزائر كانت تتخبط آنذاك في مدارات حرب أهلية فتاكة يضرب فيها الموت خبط عشواء.

خلال سنوات الحرب الأهلية في الجزائر غادر والديّ شقتهما تلك التي تُمنح هناك للمعلمين وهي واحدة من بين شقق بنيت على عجل بعد

الاستقلال لاستقبال وفود المدرسين الأجانب من عرب وعجم. سمي الحيّ بالحيّ التقدمي وهي ترجمة خاطئة عن الفرنسية، والأصح هو الحي التطوري، للتعبير عن قابليته للتطور فمبانيه كانت من الخشب الرديء ومسبقة الصنع بسبب الحاجة المستعجلة لها. آنذاك كانت الجزائر تواجه مشكلات التعليم والبناء والتصنيع والطبابة. وكلها ضرورية وعاجلة وبحاجة إلى حلول آنية.

لكن حينا التطوري هذا لم يكتف بعدم البقاء على حاله فحسب بل ترهل تدريجيًا من دون أن تمسه أدنى إصلاحات. كنا محاطين بمساكن عمال مزارعين أو صناعيين غالبيتهم من الفقراء والأميين.

مسكننا هذا كان مؤقتًا، شهد الانتظار والاستماع المتواصل للأخبار. مسكن تورط فيه أبوايّ شيئًا فشيئًا. مرت السنون الواحدة تلو الأخرى، خمسة، عشرة، عشرون، سنوات الجمر. كبرتُ وتركت أهلي وانطلقت.

8
الحرية... أخيرًا!

ها قد غادرتُ البيت!

لم أعد أسكن مع والديّ. صرت في الجامعة الجزائرية حيث حلمت من سنوات أن أكون! في الجزائر العاصمة أخيرًا، في المدينة الجميلة الكبيرة حيث الحرية والعلوم السياسية التي لطالما رغبت بدراستها، وحيث أكتشف الماركسية والرفاق والحب والإباحية. قلت وداعًا لقيودي وتقاليدي بل تقاليد أهلي. وداعًا فلسطين. الأرض العتيقة، أرض أمي المزروعة في قطع مطوية من دانتيل مصْفَرٍ مطرز بخيوط من فضة اهترئت بفعل الزمن وطول الحفظ في الحقائب. وداعًا فلسطين، تحررت منك الآن، بتّ حرة وخفيفة. لا وطن، لا أرض، لا دولة، لا سُلطة، لا سلطة بأي حال من الأحوال.

ها أنذا أكتشف في الجامعة الرفاق ونقاش الأفكار. مفكرون من اليسار مؤمنون بالنضال العالمي لشباب العالم أجمع، تجمعهم أفكار لا تشابه تلك التي كانت لأبويّ أو لفلسطينيين على شاكلتهم. عفا الزمن عليهما وعلى تركتهما الثقيلة، على ذكرياتهما وصور بير السبع وغزة. كنّست كل هذا بعيدًا ورحت أتذوق الحبّ والخمرة حتى الدوار. كَثُر المحبون! عديدون ومتنوعون ومتحررون. أما الطلاب الفلسطينيون الذين أتوا من هناك فقد بقيت علاقتي بهم محدودة، أقرّ بجلدي منهم ما إن يذكرونني بوالديّ. ثمّ عرفت رجلًا ولا كل الرجال، صار معبودي الأوحد. علي الكنز، المهيب العظيم بثقافة مذهلة نقف أمامها معقودي اللسان. دماغ مسكون بالعالم، الثالث منه على وجه الخصوص. من خلاله تعرفت على إيما بوفاري، إيمانويل كانت، فيوليت لودوك، تانجرين دريم، السمفونية الخامسة، فرنسوا كوبرين، هنري ميلر، كارل ماركس، زينوفييف، و... اليسار العربي. كل هذا المزيج العجيب لأجله، بعت كل شيء، أبي وأمي، حتى أرضي كرمى له. في الحقيقة، سبق وبعت أرضي. عبدت رجلي هذا، محرري الذي أوقعني في عبودية الحب الممتعة.

تركت والديّ فسقطا على الفور فريسة المرض. هل كان ذلك ذنبي؟

أصيب والدي بسرطان البروستات ثم العظام، كانت آلامه لا تطاق. كنا في 1982 أثناء حرب لبنان ومجزرة صبرا وشاتيلا. كنت ورجلي المعبود على وشك الزواج حين نُقل أبي على وجه السرعة إلى مستشفى فيل جويف

في باريس. لكني قررت البقاء في الجزائر قرب حبيبي ولم أكن أفكر كثيرًا في أمي التي لقيت نفسها وحيدة فجأة. تراجعت كذلك في اللحظة الأخيرة عن مرافقة أصدقائي الفلسطينيين إلى لبنان "ليحاربوا" كما كانوا يقولون. كان يتوجب علي المشاركة في حرب بيروت معهم، لكن لم يكن بمقدوري ترك علي حبيبي العظيم. كنت مشتتة بين كل هذ العوالم، أحسّ كما لو أن ضبابًا يحيط برأسي وأغلالًا تقيد قدميّ. أخبرني الرفاق فيما بعد بأن التواجد على أرض المعركة ساحر ومذهل وشعرت بالعار لعدم مشاركتي إياهم هذه اللحظات. وصفوا لي مغامراتهم بعد زوال لحظات الرعب وبعد النجاح بتفادي الطلقات التي كانت تنهمر عليهم من جميع الاتجاهات، حينها كانوا يستقلون سيارت الجيب العسكرية لتنطلق بهم شبانًا وشابات معًا فتتطاير شعورهم وتتعالى قهقاتهم الصاخبة وهم يخفون زجاجات البيرة بين أفخاذهم، وفي حمى المعارك لم يكونوا يفكرون سوى بالنفاذ بجلدهم من جديد والعودة لممارسة الحب.

كانت رفيقاتي الفلسطينيات يعانين من الكبت ويتأرجحن بين الإغواء والأفكار وهراء الكلام. لينين من هنا و"ما العمل" و"ثورة حتى النصر" من هناك. أما أنا فكنت أحرضهن على تحرير أنفسهن وأجسادهن من قيود يحلمن بكسرها ولا يجرؤن، كن يمسكنه هذا الجسد ويتناقشن ويتناقشن، بينما كنت سكرى ومنتشية بكل شيء ومستعجلة تمامًا، زيادة لا شك. لم أنتظر الحرب لأحلم وأقع بالحب، كنت على يقين بأن المزيد والمزيد منها

سيحدث وأنني لن أشارك بها أبدًا مع أنني مَعْنيّة بها دائمًا وأبدًا. صور هذه الحرب تعبر شاشتي ومذبحة صبرا وشاتيلا تتجاوز طاقة احتمالي، وإضافة إلى تلك المصائب كانت هناك أمي التي تنوح.

خلال مرض أبي انتقلت أمي إلى بيت آخر مخصص للموظفين أكثر بؤسًا من سابقه. أبي أعيد إلى الجزائر بعد أن تدهورت حالته وأصبح هيكلًا عظميًا وتوفي في أحضاننا هزيلًا وعيناه تلتمعان بلهب محموم. مات دون أن يدرك ودون أن ندرك إن وعى ما حصل له. أما التلفزيون الجزائري فتابع أثناء ذلك بث صور جثث صبرا وشاتيلا. أبي، كان قد مات، كان هو أول من مات.

رحل أبي إلى منفى جديد أبدي وحقيقي لا رجعة منه، منفى استقر به في أعمق أعماق الأرض، أرض الآخر. تربة باردة وعميقة وتعجّ بالديدان في أرض صامتة تخصّ جميع البشر، لا تتفوه بشيء وتأخذ كل شيء. أرض الجميع، تلك التي تحضنك للأبد وتتلقى أوجاعك ربما لأنها تخجل مما تحملته عليها. بضعة ضربات معاول وتحتضنك للأبد بتكتم شديد وربما لتعطيك فرصة في مكان ما؟ من يدري؟

في كل الاحوال، في هذا اليوم عادت أمي وحيدة لمقرها الجزائري الجديد.

هناك ستبقى وحيدة بقية العمر.

9

ابن البلد

عاشقة كنت وفي نسغي يسري عشق حبيبي وحده ووحده فقط.

كان رجلي ابن البلد يستند على أرض صلبة، مثله مثل الآخرين. أتعلم منه كل ما يمكن لبلد أن يهبه لأبناء لا يحملون مثلي عبء وطن على كاهلهم. هاقد أخفيت حقائبي بعيدًا، لم أعد أريدها مصفوفة فوق الرفوف. لا حقائب حقيقية ولا رمزية بعد اليوم. أعيش معه في شقته الجميلة رجلي المثقف الذي يتمتع بحقوق ابن البلد. لن أزور "قسم الأجانب" في المحافظة بعد اليوم. انتابني شعور بالارتياح لا يشوبه أدنى شك بأني أخون أهلي وأصحابي أو انحرف عن الطريق الصحيح. ربما كانت الغيرة تنهشهم ويقولون أني نفذت بجلدي وتركتهم في الوحل. لم أكن أكترث في أعماقي

وبتّ أعتقد بأن جزائريتي خالدة، بأنها مكسب مقابل كل ما انتزع مني. كل من حولي يوجه نحوي نظرات غريبة فأنا التحقت بالغريب، يضعون الحق عليه، فالغرباء لا يدركون نكبتنا وهو يأخذني بعيدًا عن قضيتنا وقدر أمتنا. لكنني سأنجب أولادًا ينتمون له ولن أهتم بالثرثرة حولي وسأعيش في وئام مع جيراني أفعل ما يفعلون وأتشبه بهم في كل شيء كي لا يسموني بالغريبة، كل شيء من تنظيف البيت إلى التسوق والطبخ. لم أكن أفكر بالرحيل لا إلى فرنسا ولا إلى بلدي "اللي ما بيتسمى".

كبر طفلاي الجميلان بين الأهل وكنت فخورة لهذا. لم يكونا ابنا الفلسطينية إنما أبناء الكنز. يذهبان في الصباح إلى المدرسة الجزائرية ويقفان أمام تحية العلم الصباحية كل بداية أسبوع. غالبًا ما كنت أشارك في هذه التحية الصباحية وينتابني الانفعال لدرجة تغرورق معها عيناي بالدموع وتجعل صديقاتي يسخرن مني.

مسني نوع من حمى وطنية وسيطر علي ما كان يصيبني بالخجل مرات. كنت وبسبب من "عالميتي" أدرك محدودية الشعور القومي وأعرف نتائجه الكارثية غالبًا في تاريخ الشعوب، لكنني صممت آذاني عن كل هذا. كنت أغني النشيد العالمي وأنا أحلم بوطن. الآن أريد أن أنتمي لوطن وحين تتحقق هذه الأمنية بإمكاني أن أغني كل أناشيد العالم وأشعاره عن المواطنة بلا حدود وعن ضرورة نسج ومزج روابط وعلاقات بين كل أبناء الخليقة. ليعطوني وطنًا وأقسم أنني لن أصبح فاشية بمشاعري الوطنية!

سنوات بعدها، لم يعيدوا لي وطني ولم يكتفوا بهذا بل انتزعوا مني البديل. ذهبت جزائريّ مني، والأسوأ من هذا أنهم انتزعوها كذلك من ابن البلد نفسه، من كنزي.

10

الجزائر... انصراف!

"مَن؟.. نحن؟! - نعم! أنتم!"

بعد أن وقع كثير من أصدقائنا تحت وابل الرصاص وطعنات السكاكين، وقعت أنا من جديد على حقائبي، حقائبي الملعونة التي ظننت أنها ستبقى حيث هي مهملة في مكان ما. وداعًا بيت الجزائر! وداعًا مساندي الجميلة، شقتي الهانئة، وداعًا للجدران والنوافذ والسرائر والسجاد، وداعًا لكل ما أودعناه حبنا، لكل ركن شهد على هذا الحب وخبّر عنه.

صحبتنا أمي وموكب من الأصدقاء إلى المطار، كانت تبكي ومعها الكل يبكي ونحن نغادر إلى تونس منتصف تموز عام 1993. تونس الدافئة والحارقة والمزعجة.

ها نحن مجبرون على رحيل جديد، طرد آخر يلاحقنا، هربٌ لا ندرك خلفياته تمامًا. نعاني الحرّ والانتظار والحلم بالعودة وتأتينا أخبار الجزائر ودائمًا سيئة! اغتيالات، مجازر، قنابل، مذابح. أعود لسماع الأخبار، عود على بدء وبير سبع ثان. كنت أعرف هذا فقد سبق ومرّ بي. لولا مأساة الوضع لضحكت من سخرية القدر. بيد أن كنزي لم يكن يضحك وكان يتألم. إنها مرّته الأولى، لا يعني هذا أن المرة الثانية أقل وطأة ووجعا لكننا نتعلم مع الزمن السقوط على نحو أفضل، التخفيف من وقع السقطة، الاستناد على شيء ما، الذراع مثلًا، قوتنا أو حكمتنا. هذا على الأقل ما كنت اعتقده. كان كنز حياتي يتوجع وفي بعض اللحظات بات وكأنه أمي، وأمام آلامه كنت أنمحي، وأولادي كانوا صامتين وضائعين.

كنا نحترق من الحر تحت سقف منزل صديقتنا التي هبت لمساعدتنا. نهى سفيرة مبعدة وامرأة يائسة آوتنا عدة أشهر. عرفنا حياتها كفلسطينية ومراحلها المصرية واللبنانية والجزائرية والتونسية والمالطية، وكم سافرت ولفت على سفينة الثورة لا سيما "ثورة" رجل الكوفية حيث كانت من طاقم المقربين له. لن أسرد حياتها فسيكون هذا طويلًا، لعلي أتوقف فقط عند المرحلة التي عايشناها بعد عودتها من مالطة حين كانت سفيرة الثورة.

نهى سفيرة؟! هذا يعني تمامًا عدم معرفة من هي نهى وما هي الثورة. نهى شخصية غير شكل، ذكية، طريفة وظريفة، مواصفات لا تتلاءم مع الثورة! هما يشكلان معًا زوجًا متنافرًا. صديقتنا كانت تمص البونبون

ليل نهار وتحب المشي حافية في السفارة وتحدّق بجرأة بالرجال الذين يسترقون نظرات شهوانية إلى أعلى نهديها. فجأة تنفجر بالضحك وبغتة ينحرف مزاجها فيثور غضبها في ثوان. هل يمكن تخيلها سفيرة؟! كم تهنّى معاونوها وسعدوا وهم يفصّلون لزعيم الثورة كل "انجازاتها" وأفعالها، إلى أن انتهى به الأمر إلى الثورة عليها وتجريدها من كل مسؤولياتها. نهى تعشق الفساتين الملونة الصفراء والحمراء والبنفسجية والمزهرة، تميل لكل الأشكال والألوان. اختارت لمكان اقامتها في السفارة أريكة من الجلد البيج وأرادت دفع ثمنها من ميزانية السفارة. كانت تطالب بآلاف الدولارات ولا تكلّ عن المطالبة بكل الوسائل وتقول أنها لتأسيس مركز للدراسات الفلسطينية، كان هذا هدفها الأولي بالفعل، ثمّ بعد أن حصلت على المال نتيجة إلحاحها، وضعت المشروع وتعقيداته على الرف وغفلت عنه. المبلغ صُرف، بدون أي نية سيئة، لشراء الملابس وتأثيث مقر السفير. يا لنهى المسكينة! لقد فُصلت من أجل أثواب ملونة وأريكة جلدية بيج، مع أنها أرادت فقط تمثيل الثورة على نحو مشرّف. لمَ على هذه الثورة أن تدان دوما وتُمثّل بأسمال بالية أو بصور محاربين شاهرين أسلحتهم؟ لكن، يا عزيزتي نهى، ألا تعلمين أن الثورة أمرٌ جديٌّ؟

الناس الذين بقوا في أمكنتهم، هؤلاء الذين لا يغادرون إلا للعطل -وإن غادروا فليس إلا ليرجعوا- هؤلاء، لا يدركون ما يجري في حياة أولئك الذي يغادرون حقًا لغير رجعة ويعيشون في دوامة الرحيل المتكرر ويحملون

معهم تضاريس أمكنتهم الأصلية. الناس الذين يبقون يروون لك قصصًا عن عُليّات جداتهم ومزارع آبائهم القريبة، رحلاتهم الخاطفة إلى جزر الأنتيل، ثمّ يتحفظون -أدبًا- عن سؤالك عن حياتك الغريبة وطرقاتك المتقطعة التي عبرتها في أسفارك. أدبهم هذا ينتهي بأن يثير غيظك. حين تجتمعون على طاولة واحدة، تشعر بعد برهة برغبة ملحة بالفرار. يتملكك ضجر عميق وأنت تسمع أحاديثهم أمام صحن الحلوى عن أشجار حدائقهم التي تنمو وتزهر. الأشجار تحتاج تربة ومكان وزمان لتنمو. ونحن، كما يظنون في قرارة أنفسهم، لا أرض لنا ولا مكان، أما الزمان زماننا فهو متعرج وغير معروف رأسه من أساسه. حين تسمع أحاديث من هذا النوع، تسأم من المتشدقين بها وإن كنت تجدهم وديين ومتفهمين ومنفحتين. حياتهم تبدو لك مسطّحة ومملة بالتأكيد، لكنك مع هذا قد تشعر بغيرة ما من هذا الملل وتدرك آنذاك أن أمورك ليست على ما يرام وأنك أنت غير المحتمل مع ماضيك المستحيل. وإن مرت قضيتك أحيانًا في نشرة الأخبار المسائية -التي لا تظهرُ فيها حتى، فما أهميتك إذًا للآخرين؟!- فهم بعد لحظات من الاهتمام سيشعرون بالضجز وستزعجهم باضطراباتك المصيرية. ومع هذا، حين يبثّ التلفزيون صورة لبير السبع أو صورًا من غزة المدمرة فأنت على أية حال خارجها ولم تعد جزءًا منها ولا أحد يلحظ هذا الرابط بينكما. حتى أنت لا ترى هذا الرابط، وتتساءل إن كنت جزءًا من تلك المدينة الحديثة الغنية المزدهرة التي تتنزه فيها حاليًا، أم من هذه الصحراء التي تظهر على الشاشة لدقيقة وثلاثين ثانية؟ كل هذا يبدو غير حقيقيًا،

أن يكون هذا البلد المغبر المليء بالحجارة وبمنازل مهدمة الأسطح هو بلدي، وهؤلاء الناس الذين نشاهدهم هم ناسي، وأولئك الصبية الذين يرمون الحجارة على الدبابات -يا للأوغاد!-، لمَ لا يذهبون عوضًا عن هذا لمراكز الترفيه المخصصة للصغار أمثالهم (في البلدان المتقدمة)؟ أما هؤلاء الملتحون المدمنون على البؤس وكأنهم خارجون لتوهم من فيلم "اسم الوردة"(*) فيمكننا الظن أنهم يمضون يومهم وهم يفقّسون مؤامرات متتالية ضد العالم المتحضر. وماذا عن الأغنياء المتشبهين ببرجوازيي العالم المتقدم، هل مازالوا موجودين؟ كم يبدون على انقطاع مع محيطهم بدولاراتهم وسياراتهم المرسيدس التي تعبر شوارع محفّرة، وبناتهم اللواتي يتزوجن في فنادق الهيلتون أو الشيراتون. هل كل هؤلاء ناسي؟ هل أنا منهم؟ لست سوى برجوازية صغيرة حسنة الهندام على الموضة، برجوازية صغيرة تعيش في الغرب وتسمى لاجئة. نعم لاجئة!(**).

مهما كان الأمر، عليكِ الاستمرار بالعيش دون أن تحاولي الفهم. تمارسين حياتك المعتادة وتقومين بأعمال البيت اليومية، ويفضّل فعل هذا بقدر من البهجة إن كان ممكنًا، تشترين الفريز أثناء التسوق، وتبدين إعجابك بالزبدة المحلية المملّحة، وتذهبين للاستهلاك في سوق المدينة المعروف، وتشاركين في اجتماعات. مجلس البناية، وتستمعين لأطفالك

(*) فيلم فرنسي لجان جاك أنو حققه عام 1986 عن اختفاء رهبان في دير عام 1327 وهي الفترة التي شهدت نقاش الكنيسة حول سلطتها ودورها. (المترجمة)
(**) بالانكليزية في النصّ. (المترجمة)

وللموسيقى أكثر وللأخبار أقل. كما يمكنكِ كي لا تصابي بالاكتئاب، أن تمارسي رياضة الركض مثلك مثل ملايين الرجال والنساء هنا. وأيضًا لن تنسي أبدًا الاعتقاد بأن الصباحات دائمًا جميلة ومحملّة بالأمل.

بات النقب بعيدًا وغدا خلفي الآن. الجزائر البيضاء ضبابية وغزة غبارية ونانت لّماعة. والملل معقّم. مع هذا، تدور الحياة دورتها بلا غموض ولا زخرفة ولا إثارة، وإن بدت بعض جوانبها جميلة أحيانًا. جميلة بل تصبح فجأة هكذا حين يهلّ عمل أو مال، حين أتمتع بنزهة وتأتيني أخبار صديق وينال أولادي علامات جيدة وأحصل على قبلاتهم. أشياء بسيطة فيها عزاء وجمال وتجعل من الحياة حلوة، يكفي فقط الإيمان بها والأفضل إجبار النفس على الإيمان بها.

مشهد بير سبع ينأى. واحد، اثنان، ثلاثة. ها قد اختفى في أفق من غبار. إنه سجل اختفاء أو اختفاء مسجل كما تحلو لنا تسميته، لكنه مفبرك ومطواع بالتأكيد. قد يعاود المشهد ظهوره في أي لحظة لكني سأحاول احتوائه آنذاك ووضعه تحت "السيطرة". هذا يعتمد على الحدث وأنا لا أحب الأحداث مع توقعي لهجماتها المتتابعة عليّ، أعرف أنها لن تدعني وشأني أبدًا ومعركتي ضدها ستكون طويلة. أدري هذا لكن، يجب علي أن أقودها وإن كان في أعماقي صوت صغير يهمس بأنها معركة خاسرة من البداية. هل هو على حق هذه المرة؟ هذا ما سيقرره التاريخ.

11

غزة - الهاجس 2009

نعم، لنَر. سيكونُ هناك غزة قريبًا! غزة أيضًا من جديدٍ ودائمًا غزة. تعودُ مثلَ كيدٍ عليكَ يرتدّ. على الضّربِ مصممةٌ وللموتِ جاهزة. تموتُ وتحيا في الآن ذاته. معاديةٌ ومرحبة، جريحةٌ ملطخةٌ بالدّماء، ممزقةُ الجسد. لكنَّ غزّتي تصرخُ كما لو كانت فَرِحَة، كما لو كانت بطلة. تنبضُ في داخلي، لا تدعني، أنا ابنتها وهي أمي. لطالما أنجبت في كل مكانٍ أطفالًا وحطامًا وغبارًا وركامًا ووحوشًا لتحميها. لا تُقهر، غزتي! صغيرتي، عملاقتي، محبوبتي. تُخْرِجُ أنيابها المحترقة، تأبى طحْنَها وترفضُ اغتيالها، تدافعُ عن نفسها وترجعُ لتجثم في أعماقي. لا تحميني بل تحتفظُ بي في حضنِها، في حرّ ورطوبةِ غبارها. تدعني ألغو بما شئتُ عنها. غزتي لا نهائية خالدة.

تطَلّ على البحر، تواجه تهديدَ انتهاكِها وانفتاحها. تنوءُ بأحزانٍ وهشاشةِ جرحاها، تدللُّهم وتتخلى عنهم. لا يمكنُها اخفاءَهم، لا مأوى لديها، هم جزءٌ من منظرها، من جسدِها المشوّه والصّلب بآن. لا تتركُ نفسها تُغتصب، لا تدعُ نفسها تُنتزع، ثغراتُها كثيفة، معجونةٌ بلحم بشري. لا تسمحُ لسّمٍ أن يعبر، تقاوم، كما دأبت واتقنت المقاومة، من فجر التاريخ حتى اليوم مهما كان المهاجِمون والمحاصِرون! غزة لا تكترث لا تعبأ تتركني أنا ابنتها الصغيرة الهاربة غضبًا عني على مبعدة منها، بعيدة لدرجة، كأنها أحيانًا تدعني أسمعُ تذمّرها. تكلمي! انطقي! تخاطبني: احكي بدلًا عني قولي لهم ماشئتِ عني. أسيغيّرُ هذا شيئًا؟ صيحي وأعلني أوراقك الصغيرة على الملأ على الإنسانية البيضاء. لكني أنا مشغولةٌ بالشفافية، مقرفةٌ شفافيتي! فليروا فيها ما شاءوا. ليفعلوا أو لا يفعلوا شيئًا والزمن سيحكم إنه القاضي الأكبر أمام الأبدية. ماذا بعد؟ اشتعالٌ فاشتعال، ثم... هدوء، يعقبه اشتعال فهدوء من جديد، هكذا كان الحال، على الدوام.

لكن غزة، أجيبُها، هل أجرؤ على طلبِ شيء، على طرحِ سؤال جدّ صغير؟ في الحقيقة إنه شيء وليس سؤالًا. لكني أخجلُ من طرحه عليك، من طلبِه منك. حسنًا لأقله. هذا الشيء - السؤال الذي يهمسُ بداخلي منذ العدوان الأخير الذي تعرضتِ له، منذ الاشتعال والفولاذ القاتل والتدمير، منذ كل هؤلاء الموتى والجرحى. نعم، سأتجرأُ على طرحِه بصوتٍ منخفض بل خائف: وبيتي، غزة؟ بيتي الذي في قلب المدينة، بيتي الذي

ولدتُ فيه، هذا الذي لا يبعدُ كثيرًا، تعرفينَه بيت حارة الدرج. نعم! أدري، إنَه هناك حيث كان القصفُ في 2002 وحين قُتل ناشطٌ من حماس ومعه أربعة عشر مدنيًا من النساء والعجائز والأطفال. أترين؟ أنا على علم بكل ما جرى. إنَها الأخبار! نعم، غزة! مذبحة جديدة ولم يحن الوقتُ الذي نقول فيه إنها المذبحة الأخيرة. لا، هذا الوقت لم يحن بعد. تتحملين، كما تحمّلتِ دائمًا... لكنني أعود لتساؤلي، لبيتي، هذا الذي ولدت فيه، بيتي الموجود في حارة الزيتون. هل مازال إلى اليوم قائمًا؟ أو أنه أضحى حطامًا؟ هل قُصف؟ أشاهدُ التلفزيون وحين يمررون كلَّ هذه الخرائط المفصلة للمدينة، تخرج عيناي من مقلتيهما لشدة ما أحدق وأدقق لأحدد موقع بيتي. لا أفقه شيئًا من كل هذا، يذيعون أن كل حيّ الزيتون تدمَّر، وأتساءلُ هل حارة الزيتون توجد في حيّ الزيتون؟! وحين أهاتف هؤلاء الذين بقوا هناك وأسألهم، يراوغون في إجاباتهم. لعلّهم لا يدركون كم أنا متعلقة ببيتي الأول؟ وكيف لهم أن يدركوا؟! رحلتُ من وقت طويل ومرّ كثيرٌ من الأحداث، من الموت، من التدمير... أشعرُ باستحياء يمنعني من الإلحاح في السؤال، كيف لي أن أطلبَ تفاصيلَ عن بيتي وهم تحت نار القصف؟ لكن، أنتِ قولي لي يا عزيزتي، أخبريني بصراحة عمّ حلّ ببيتي؟ بيتي ببوابته الزرقاء، بيتي ذو الغرف الثلاث المطلة على ليوان، حيث عاشت جدتي وأمي وأنا وأخي. بيتي هذا الذي كنت أخرج منه لألعب مع حسني رفيق سنواتي الثلاث. ستقولين لي أنني كنت صغيرة

جدًا وكل ما أسرده يدعو للسخرية! كيف لنا أن نتذكر هذه الفترة؟ أنا أتذكّرُها لا أعرفُ كيف، ولكني أتذكرها. تغذّيتُ من هذه الذكريات، حرصت عليها طيلة وجودي، تعلمين هذا جيدًا، أنت يا غزتي القاسية! تتمددين في مساماتي، في ذاكرتي المُرهقة وأنا، اللاجئة الغائبة الحاضرة. أُنْهِكُكِ أيضًا وأيضًا. حاضرةٌ وأرفع يدي علامة الحضور دائمًا من أجلك، مشتتةٌ في الأماكن ومنفيةٌ ولا أتنازل، انتمائي لك. "طز" فيك غزة، أرفضُ أن تتخلي عني، أرفضُ أن تنسيني. "طز" فيك غزة. ثلاث سنوات فيك تكفي لتفسدَ الوجود! أنت لم ترغبي أبدًا بالرحيل، بالاختفاء، لم يبتلعْكِ البحرُ كما حَلِمَ الغازون. ميناء انتيدون مازال هنا وتضاعفت مساحته مرات، وها أنت الآن جامحة مشوهة وأمّ مربية، عجوز، قبيحة ببثورها! لا تكفّين عن الولادة وأنت تدفنين موتاك، أطفالك صغارًا وكبارًا الدائرون طوال اليوم في دوامة أزقتك ودروبك واصطبلاتك لا يكفون عن اللعب، بأيديهم رشاشات من خشب، من معدن، من مواسير... وأنت لا تتفوهين ولا تقولين لهم شيئًا. إنهم مقاومتك، تتركينهم يفعلون ما يفعلون حتى لا تنهزمي. لم يعد بمقدورِك إطعامهم ولا تعليمهم كما تفعلُ بلاد أخرى غنية ومتحضرة. إذا نحن نكنُّ لكِ الحقدَ غزة حبيبتي ونشعر بالعار من عجزك عن الأمومة، نحقد عليك... هذا كل شيء، فقط لأنك أنت فنطلق لأنفسنا العنان ضدك ونجن. هيا يا غزتي! لندع أنفسَنا في مناجاةٍ مخزيةٍ، فيما بيننا لا أحد غريب، نشكّلُ كلا واحدًا، وحشٌ صغيرٌ ممزق. نبضُ

قلبي أنتِ وروحي غزتي، روحي إلى عربدة طقوسك. يمكنك عرض كل شي على السماوات غير الرحيمة تجاهك، هيا اعرضي نفسَك وخذي كل المساحة وكل العيون لكل هؤلاء الأوغاد.

نعم، روحي يا غزتي! غزتي ديسمبر 2008 - كانون الثاني 2009. غزتي الحرب الأخيرة وغزة الحروب القادمة لا محالة...

12

النقب، النائي هناك!

عودٌ على بدء...

وأعود إلى الرجوع الآخر، هذا الذي ظننت أني خلفّته ورائي وبت إنسانة جديدة. فلسطين، أحاول ثانية الاقتراب منكِ كلك، تَلمُّسُكِ بعد كل هذه السنوات، تقديم ابني لك.

سنوات مرت، صبغتْها كل الألوان، أبيضِ، رمادي... وغيرها، لا أبالي، ما يهمّني أني مسلّحة بكل ما يلزمني من أوراق أنا وأطفالي. أريد لهم أن يتنقلوا بحرية، ألا يُحجزوا على حدود البلاد كما حُجزت. منذ فترة تطنّ رحلة العودة في رأسي وتجثم عِلى صدري، يجب أن أعود أنا العطشى للرجوع المتلهفة له، أنا وافتقادي الذي لا حدّ له.

ها هي الفرصة تجيء. يدعوني صديق من القدس الشرقية لزيارتها. قضيت على كل ما يثبّط همتي واشتريت بطاقة لي ولابني. كنت مصممة على أن يصحبني أحد من أسرتي ليزيد قدرتي على التحمل. كان ابني ذو الستة عشر عامًا يعبر فترة حرجة يثقلها القلق والتساؤلات، ليس فقط بسبب الجوّ المسموم في فرنسا، كانت له حساسيته الخاصة وكان كفارس يريد أن يبصر عن قرب هذا الذي اغتصب بلد أمه، ليصطدم به ربما... لكن الآن سيكون عليه التزام الهدوء!

في طائرة الخطوط السويسرية، لم نكن نختلف عن المسافرين الآخرين، لا شيء يفرقنا ظاهريًا عنهم. كانوا في معظمهم من اليهود متعطشين ومتلهفين "ليطلعوا" للبلد. يأكل أغلبهم طعامًا كاشير (حلال) في أوعية كاشير وحين تسقط شوكة مثلًا أو سكينة على الأرض يثيرون ضجيجًا ويدعون أحدًا من طاقم الطائرة لتغييرها، فلم تعد حلالًا! يبدي مظهر بعضهم انتمائه الديني على الرأس يضع مثلًا طاقية وعلى الكتفين وشاحًا أبيض مخططًا بالأزرق وعلى الجبين آلة فيبدون كمستكشفين من العصور القديمة. يفضّل هؤلاء البقاء واقفين غير عابئين بارشادات طاقم الطائرة. قضيت وقتًا مسليًا وأنا أراقبهم وأفكر بأن وجهتنا واحدة أنا وهم بملابسهم الغريبة وتجهيزاتهم وبهذا الخوف الذي يبدو أنه يسكنهم -من الطائرة أو من شيء آخر- وانتابني شعور غامض نحوهم لا يخلو من عاطفة ما وشيء من فضول! نظرات الجالسين بقربنا متواطئة معنا وكأننا شركاء في المصير، لدرجة أن أحدهم خاطبنا قائلًا:

- لا تخشوا شيئًا، سنصل قريبًا إلى مكاننا الحبيب والرائع. هناك، سترون الفرق وتنعمون بمعاملة مميزة، ستلمسون هذا وترونه، نعم سترونه.

كانوا متاكدين أننا منهم، ولم يكن ليخطر على بالهم أبدًا أننا من الآخرين! من هؤلاء الذين في الطرف الآخر، أعداؤهم!

بيد أن جاري انتفض على حين غرة، لقد استرق نظرة على جواز سفري. اتخذ وضعية الدفاع بعد أن كان لغاية اللحظة يرمقني بنظرات متضامنة وحانية. كنت أملأ استمارة الدخول وأكتب في خانة مكان الولادة ما لا يُكتب: "غزة"! آه يا للفظاعة، غزة الرهيبة، غزة الملعونة. توترت الأجواء على الفور، استدار جاري وولى لي ظهره بعدوانية جليّة. ثم قرر ترك مقعده فتحرك وهو يتجنب النظر إلينا ومحاولًا أقصى جهده ألا يلمسنا. توجّه نحو الآخرين وبدأوا همسات هبت معها "ريح" من البلبلة على متن الطائرة، لقد اشتمّوا عدوًا! ما الذي بوسعهم فعله؟ ليذهبوا إلى الجحيم! الآن بات كل منا يوجّه نحو الآخر نظرات متحفزة حذرة. باستثناء هذا الشعور المتبادل بعدم الارتياح والقلق لم يكن ثمة ما يخشى حدوثه. على أي حال كنت أنتظر صعوبات في هذه الرحلة وها هي قد بدأت... هذا كل شيء.

وصلنا مطار تل أبيب عند الرابعة صباحًا وكان جنود مسلحون ينتظروننا على باب الطائرة. الآخرون، شعروا بالراحة أخيرًا ومروا على حاجز شرطة الحدود قبلنا كما توقعت. أما نحن فقضينا ساعتين نتنقل بين كوة وأخرى ومن غرفة تحقيق إلى قاعة انتظار حتى سُمح لنا بالعبور أخيرًا. في الحقيقة

كنت أنتظر ما هو أسوأ، وفيما كان ولدي يجاهد بجانبي لقمع غضبه لم أشعر بأدنى صدمة أو شعور خاص.

كان التاكسي في انتظارنا، حين رأيت سائقها العربي كنت على يقين أنه سيباشر حديثًا معي ويبتسم لي ويستقبلني بكل هذه التعابير والتحيات التي يُغرم بها العرب عادة. لا شيء من هذا حصل، لعله شخص لا يميل للمحادثة، أو... بلا! ربما كان نصف نائم أو ضجر من كل ما مرّ على رأسه!

عبرنا طريقًا سريعًا يشبه كل الطرق في كل مكان في العالم العربي وغير العربي، وكانت الحرارة 28 درجة مئوية.

13

صديق بيت حنينا

يستقبلنا صديقنا ساري في منزله الواقع في بيت حنينا وهي ضاحية عربية هادئة في القدس الشرقية. ترحيبه بنا وابتسامته الناعسة يشعراننا بالراحة في شقته الجميلة. الوقت فجرًا، أشعر بأني منهكة من الطريق الذي قطعناه بين تل أبيب والقدس، بأني غريبة في هذا المكان الحار والرطب على أرض هذا البلد بهذه الكتابات العبرية المحيطة بي وذلك الحضور العسكري. تعاودني ذكرى هؤلاء المجانين في الطائرة. استغرب تماسكي وعدم إجهاشي بالبكاء. لا، لم أبكِ. لعلني في اللاوعي قررت الاحتفاظ بكل قواي، ليس قواي فحسب بل قوى كل أجدادي مجتمعة. كأني كنت أوفرها إلى أحداث ستقع لا ريب، كأني ألعب دوري كمرشدة لصغيري الذي يرافقني، ومن يلعب دورًا كهذا لا يفترض به البكاء!

ساري شخص واقعي وعملي وليس من هؤلاء الأشخاص الذين يتحسسون أو يدعون العواطف تتدفق على هواها. شعاره يختصر بعبارة: "ايه.. و... يالله! يالله، هوب هوب"!. أتعرّفُ على بيته واستمع لشروحاته السريعة حول تشغيل الأجهزة، وملاحظاته حول حريتي المطلقة في فعل ما أشاء والتنقل حيث أشاء دون أن يغفل التركيز على ضرورة خضوعي لقواعد المرور والأمن المتشددة و"المعروفة لي بالطبع"! كما يستدرك بابتسامة مفهومة المغزى.

لا يزيد قولًا فهو مشغول و"سبيد" (متعجل) ويجب التأقلم معه.

أخرج إلى الشرفة المطلة على المرتفعات في أول صباح في بيت حنينا، الأرض عارية إلا من قليل من المزروعات ومبان موزعة هنا وهناك وبعضها مهدم، وعلى الأرجح من قبل الإسرائيليين. أرى الناس يبنون ويعيدون البناء بدون كلل، متحلين بهدوء وصبر عجيبين.

رغبتي شديدة بزيارة المدينة القديمة في القدس الشرقية، المدينة العربية، الأسطورية بالنسبة لي. ساري يحاول ردعي فورًا ويقترح الذهاب أولًا إلى الجهة الغربية ويكرر محاولًا اقناعي "سترين، إنها رائعة!". لم أجرؤ على مخالفته، جررت نفسي خلفه والقلب منقبض فكيف لي أن أذهب لأرى جهتهم هم؟ كيف أذهب وألمس كم هم مستقرون وهانئون؟ مع هذا، ذهبت!

تفرغ لنا ساري وقادنا بكل نشاط وحيوية في الشوارع والميادين

والحدائـق. بيوت حجرية جميلة وضخمة و... باردة لا تروي ماضيها. كما لو أن شـيئًا لم يحدث خلال خمسـين عامًا. روعة لا تُخفى عليّ لكن شـعورا بعدم الارتياح يغمرني، ويتملكني احسـاس أني هنا شاهدة على سـعيهم بمحو آثار جريمة، وأني أرصد مـا لا تميزه عين طارئة، أنا عارفة ولا أكترث لنظرات مُتّهِمَة ولم أصب بالجنون والهلوسـة... نتقدم خلف سـاري الذي ينفعل بحماسـة أمام نبتة المجنونة المتعربشـة على واجهات المنازل:

- لا تنزعجوا! كل هذه البيوت كانت لنا... أقصد للعائلات الفلسطينية الكبيرة. انظروا، هذه كانت ملكية آل نسيبة، وتلك لآل العلمي أما هذه، انظروا جيدًا، فكانت للكبير ادوارد سعيد. يجب معرفة التاريخ. يجب أن نواجه هذا التاريخ، العواطف التي حشرنا أنفسنا فيها منذ خمسين عامًا لا تنفع كثيرًا.

غريب هذا الساري! يضحك وهو يحذرنا:

- انتبهوا حتى لا تصابوا بالهوس القدسي. انتبهوا! هذا شر لا رجعة عنه.

فعلا يصعب علي تحديد شخصية ساري دون أن يمنعني هذا بالاعتراف في قرارة نفسي بفضله وشروحاته.

يتابعنا ابني بكل تهذيب وهو نصف مذهول ونصف مأخوذ ويبدو كأنه لم يرَ بعد ما يرغب برؤيته ولا أدركَ ما يرغب بإدراكه. حاله كحالي على أية حال. فلننتظر!

صباح اليوم التالي يذهب أنيس برفقة ساري وابنته علا إلى رام الله مقر الجمعية حيث يعمل صديقنا، كانت الدورة التدريبية لابني فيها هي الحجة الرسمية لقدومنا إلى هنا. استجمعُ شجاعتي بصعوبة لأخرجَ من البيت، أذهب لنهاية الشارع وأترصد سيارة تاكسي. ليس التاكسي هنا سوى حافلة صغيرة عمومية يسمونها "فورد". نقف حيث تمر ونؤشر لها وحين تتوقف يسألك السائق فورًا، تجنبا للمشاكل، إن كانت لديك "الهوية". هويّة نادرة وقيّمة خاصة بسكان القدس ويمكن للسلطات الإسرائيلية أن تسحبها منهم لأقل سبب، مهما كان تافهًا.

14

القدس المدينة القديمة

تغمرني بهجة كبيرة لأول مرة منذ وصولنا. أنا هنا داخل هذه الفورد، ملتصقة بأهلي ذاهبة في نفس اتجاههم. تتوقف الحافلة باستمرار، نازلون وصاعدون، يعرفون وجهتهم، هذا مكانهم، أرضهم. أحسدهم! ليسوا مصابين بالتيه والدوار مثلي، لا يواجهون المجهول كما لا يدّعون معرفتهم وإدراكهم لكل شيء. كل هاجسي وأنا بينهم ألا أبدو كأجنبية، رغبتي أن يقتنعوا بوجودي هنا منذ فجر التاريخ، بأنني واحدة منهم لم أبتعد يومًا عن مسيرهم وتقاسمت باستمرار أفراحهم وأتراحهم، بأني أحبهم الآن كما أحببتهم على الدوام، وبأني وأجدادي ما تركنا هذه الأمكنة الغالية علينا.

نعبر المدينة التي تتبدى لي للمرة الأولى. في الفورد كان الركاب بسبب وبدون سبب يمزحون بكل ألفة. اتخذُ هيئة من تشاركهم وتتفاعل مع كلماتهم، أجتهد كي أبدو جزءا من الصورة... نصل المدينة القديمة، ينزل الجميع. إنها نهاية الخط.

المدينة القديمة المحزّمة بسورها تنفتح أمامي وتهبُ نفسها لخطواتي ونظراتي. الجنود هنا هم أيضًا، أمام كل الأبواب مسلحين حتى العظام. يستعرضون قوتهم وسلطتهم بعدوانية على مزارعين بسطاء يبيعون خضرواتهم على زواية الطرقات وبائعين فرشوا بضائعهم من تذكارات وخبز وحلوى.

أتقدم وأنا أشدّ على ساقيّ. أتقدم، أتقدم، كأني اتجه نحو مكان مألوف تاركة دواري خلفي. شيئًا فشيئًا أسترخي، أذرع المكان بخطاي، لا أدع رقعة، هذه الأزقة المتعرجة تذكرني بكل مدينة أخرى عبرتها: الرباط، مراكش، تونس أو الجزائر. لكن اللغة مختلفة هنا، إنها لغة طفولتي لكن بلهجة أهل القدس. أصغي لها وأتشبع بها، لتغمرني بعذوبتها، لتروي كل افتقادي. أبصر كبارًا في السن يجلسون حول متاجرهم الصغيرة يلعبون طاولة الزهر ومن وقت لآخر يقهقهون ويصيحون: "لا ياشيخ! مش هيك، والله مش هيك!"

يملأني حبور وتغمرني سعادة.

هنا، ككل مدينة قديمة، نُظّمت القدس وفق حِرَف أصحابها، وتوزع

الحرفيون حسب المواد التي يستخدمونها: الجلد، الخشب، النحاس، الساعات... عطارون وبائعو بهارات. تفصل بينهم حدود وهمية. نتوه في الأزقة ونجد طريقنا في النهاية.

أصل أخيرًا إلى قلب المدينة العتيقة. لا أجرؤ على الاقتراب من ساحة المسجد الاقصى، ليس الآن، ليس هذه المرة. أؤجل الزيارة للغد وأعود لمنزل ساري.

15

استراحة في أريحا

هل بدأت من البدء؟ في 4 تموز 2004، يوم شروعي بهذه الرحلة الخاصة مصحوبة بابني. سفر إلى أخر فلسطين... كسفر سيلين(*) إلى أخر الليل. في كل الاتجاهات ونحو كل الوجهات، أغور في تمزقاتي، في عمق أعماق فلسطين مجزأة ومقطعة الأوصال على يد محتل متسلط. لا التصق بها ولا الصقها بي لأشبعها تقبيلًا بنظراتي ولألمس جمالها من جديد. أتساءل، كيف التقطها؟! وكل هذا التنوع والتعدد واللا تجانس...؟ كل هذا التناقض؟ هي ليست اثنتين فقط، البلد الفوقاني والبلد التحتاني، هي مركبة يشتبك

(*) لوييس فردينان سيلين 1894–1961 (Louis-Ferdinand Céline).
من أشهر الروائيين الفرنسيين في القرن العشرين، اشتهر بعد نشر روايته الأولي "سفر إلى أخر الليل" عام 1932 حيث ينتقد فيها بنمطه الأدبي الفريد رعب الحرب وقسوة الرأسمالية وإلى حدّ ما الاستعمار. (ويكيبيديا)

الكل فيها ويتقاطع... وسمات الحنان على وجوه أهلها لا تخفي تناقضاتها الاجتماعية.

في المساء يقترح علينا ساري:

- لنذهب إلى أريحا فغدًا يوم عطلة.

هذا ما فعلناه. نستقل سيارة ماريان صديقة ساري وهي فرنسية تعمل مديرة لمركز ثقافي فرنسي. على الطريق يلفحنا اللهيب وحولنا أرض صفراء جرداء كأنها سطح القمر. من حين لحين ترشدنا لوحات بالعبرية والعربية والانكليزية إلى "البحر الميت". يخامرني احساس أني أخذت بطاقة إلى الجحيم، وأسأل نفسي أأنا وحدي التي تشعر بهذا؟ ولمَ شعور بحرقة يهبّ في داخلي؟

نصل مركز المدينة القديمة التي يقال أنها الأقدم في العالم. اقترحُ أن ننزل ونمشي قليلًا، لكن ماريان تعترض وتتعلل بالتعب وتقترح الذهاب أولا إلى فندق جيد كي نستريح وننتعش. حسنًا ليست فكرة سيئة. نتناول طعامًا فلسطينيًا تمامًا، فلافل وحمص وسلطة ومشويات وعصير طازج من الليمون والنعناع ونستمتع بالخدمة اللطيفة والاهتمام. ننزل بعدها إلى بركة سباحة مفتوحة تطلّ على جبال عارية مهيبة. نعوم في المياه الدافئة وحولنا أطفال يُدعون جورج، دانيال، كريستينا وفرانسيس، وأمهات وآباء أسماؤهم إلينا، انطونيوس، ميريل، كريس. أسأل ساري إن كانوا كلهم مسيحيين هنا، فيرد:

- هذا مكان للموسرين كما تعلمين، ووضع المسيحيين هنا أفضل حالًا من غيرهم. يودون الحديث معك بالفرنسية كما أخبروني.

الجو حارٌّ، حارٌّ، وماريان تبدو منهكة. ترفض تمامًا مجاراتي والقبول بجولة في أريحا ولا تعير اهتمامًا لرغبتي. حسنًا! ماريان هذه، التي أرقبها بين حين وآخر بطرف عيني، بدأت تثير أعصابي. تبلّد الحسّ على هذا النحو المعلن يغضبني ويحبطني في آن. ربما تجهل سبب وجودي هنا وأهمية كل لحظة وكل جزء من الرحلة لي. تعطيني انطباعًا بأنها مجروحة لا تحبُّ ولا تقدّرُ شيئًا مما ترى. ثمّ عرفت السبب فهي غارقة في قصة مستحيلة مع فلسطيني بدوي، حبّ مدمر يؤثر على كل شؤون حياتها.

المساء يقترب، وعلينا العودة وعبور الحاجز قبل التاسعة أو العاشرة. لكن ساري الذي لا يعبأ بالساعات المحددة، يتوقف في سوق المدينة لارضائي واسعادي. يتحلق البائعون حولنا يرحبون بنا ويدعوننا للشراء. نشتري منهم فواكه وخضار تشتهر بها أرض أريحا الخصبة من بطيخ أحمر وأصفر وعنب "من الفردوس" برائحته العطرة وخيار صغير لذيذ كم كانت أمي تذكره. البائعون يصيحون على البضاعة بحماس وحبّ:

- يالله! يا الله! شيل! شيل!

وحين يلاحظون قلقنا من الساعة التي تتقدم، يحاول كل بدوره طمأنتنا:

- لا تهتموا. يمكنكم قضاء الليلة عندنا. أهلًا وسهلًا!

ساري يثق بصدق دعوتهم وحقيقة مشاعرهم، إنما علينا فعلًا المغادرة بسرعة وفي لمح البصر.

لكن هل هي التاسعة؟ أم العاشرة ليلًا؟ ثمة فرق، ينبهنا الناس هنا بأن الإسرائيليين لا يعلنون أبدًا موعد أخر حاجز وعلى المرء أن يخمن.

- هم هكذا! يفعلون ما يشاؤون وكل ما يريدون.

وأنا، لم أدرك تمامًا ما يعني هذا.

ليس لدي أي سلطة على سير الأحداث. وأتساءل فقط عن هذه الحياة بصحبة ساري حيث كل شيء ينزلق بسهولة فوق أرض وعرة! مهما سألت نفسي فلا جواب إلا تلك الجبال الجرداء والحرّ المرهق والجنود الشباب على الحاجز، وابتسامة أهل بلدي الهادئة المشبعة بالقلق. أتساءل... وأعجب ألف مرة وفي كل مرة يعودني طعم البحر الميت كالعلقم في فمي، وتلاحقني رغبة أن التصق بهذا البلد، أن أتغلغل بعمق في أرضه العارية القاسية المالحة...

نعبر الحاجز واجراءته **المعتادة**.

16

نزهة في رام الله

ليلة أخرى نقضيها في القدس قبل الرحيل إلى رام الله. حواجز قلنديا تبطىء حركة المرور، وتجعله على مرمى نظري. الجدار! هائل، ضخم ونصفه لم يكتمل بعد! الناس من حوله يروحون ويجيئون، يمرون ويتجمعون ثم ينتهون في ممرات طويلة، لا علاقة لها بتلك التي نعبرها في مطارات العالم المتقدم! هنا، هي أقفاص نتقدم فيها ونتراجع، الناس داخلها مسحوقون من الإرهاق ومع هذا يرتسم على سحناتهم هدوء مستسلم وهم يعبرون ويتجاوزون كل العوائق والحواجز، يدرون من أين وإلى أين وجهتهم. الجنود منزرعون في كل الأرجاء يحيطون بالمشهد العام ويشكّلون جزءًا منه، كأنهم قطعة ديكور لا غنى عنها، لكنهم ليسوا وحدهم! تزاحمهم عربات خضار وفواكه وبضائع من شتى الأنواع تعرض على العابرين كل

ما يلزم ومالا يلزم من كؤوس الشاي وفناجين القهوة إلى الشحّاطات والأجهزة الرياضية وحتى أزياء زورو وسوبرمان تنضم إلى المعروضات. يعلو صوت البائعين بالغناء وهم يروّجون لبضائعهم، والشمس لفحت وجوههم المتربة، **كأنهم يحملون معهم شيئًا من تراب الأرض أنى يتوجهون، كأنهم بهذا ينقذونه من السلب.** أشعر بحب نحوهم وهم يرددون "شيل، شيل، يالله شيل..." وأسأل نفسي إن كنت ساذجة وحمقاء وشعور كهذا يغمرني.

أتقدم بينهم على مهل، أحييهم بنظرة، بابتسامة، أخطو للأمام أدعس بقوة على نعليّ وأنا أجتاز أكمة تراب رصّها العدو متعمدًا هنا وهناك لإبطاء حركة العبور.

نصل رام الله عاصمة الضفة الغربية أخيرًا. مدينة عربية بامتياز تختلط فيها المتناقضات، بين انسيابية وعجقة، عجلة وتمهل، يتزاحم مشاة وسيارات في فوضى لامتناهية على وقع سيمفونيات من الزمامير، وتشارك لوحات دعائية بهذا المشهد العبثي لتضيف له بعدًا وابتكارًا بلغاتها العديدة ولاسيما منها الأسماء الانكليزية المكتوبة بالعربية أو العربية المكتوبة بأحرف لاتينية. ازدحام عجيب في مركز المدينة يطلقون عليه هنا تعبير: أزمة. السائقون يرددون في كل مرة عبارات كهذه: "سنتحايل على الأزمة، لن نخوض في الأزمة، نكره الأزمة..."

في رام الله تتمركز القيادة الفلسطينية التي أتت من تونس وغيرها بعد اتفاق أوسلو. الجزائريون، شعبي الثاني بالتبني، كانوا سيصفون هذه المدينة

بـ"تشيشي" أي مدينة المدللين، فسكانها من الأطر العليا من النومنكلاتورا(*) نوعًا ما. كثير منهم يسكن فيلات فخمة مع خدم وسائقين. رام الله كانت غنية قبل وصول السلطة إليها بفضل هجرة قديمة ومهمة لأبنائها للأمريكيتين، استقروا هناك منذ أواخر القرن التاسع عشر. موجة من المهاجرين ناجحة في معظمها جلبت الثروة للبلد.

زرنا المدينة مع زياد وهو سائق لزوجين من أصحابي يحتلان منصبًا رفيعًا في السلطة الفلسطينية، كنت تعرفت عليهما في تونس... إنه رائع، يضحك من أعماق قلبه لكل مناسبة ويقودنا بسرور في كل أرجاء رام الله، من شرقها لغربها ومن شمالها لجنوبها. يصحبنا لزيارة جامعة بيرزيت وقرى الأجداد المبنية بالحجر الأبيض، ولا ينسى مخيمات اللاجئين المتواضعة هنا وهناك داخل المدينة وخارجها مثل جلازون والأمعري وقدورة. النظرة الأولى لها لا تبديها بائسة حقًا فهي تشابه أي حي فقير في ضواحي أية مدينة عربية لكن السكان هنا لاجئون. سأعفي نفسي من شروحات تاريخية عن اللاجئين الفلسطينين!

زياد يرى بأن علينا ألا نتأثر مما نرى، فهؤلاء اللاجئون، يتسلمون إعانات وقضيتهم تثير اهتمام العالم بأجمعه. إنهم برأيه وباختصار: مدللون! حسنًا، هذا رأيه، لكني أظن أنه يشعر بالغيرة منهم وأن ثمة منافسة بين الفقراء. وها هو يعقّب:

(*) Nomenklatura (بالروسية: номенклатура) هو مصطلح روسي، استخدم بلغات الدول الشيوعية الأخرى، لتسمية نخبة الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ودول الكتلة الشيوعية. في الصين فإن التعبير المكافئ هو الأمراء الحمر.. ويكبيديا الفرنسية.

- تعرفين، هؤلاء يشترون أثاثًا جديدًا أما نحن فنلجأ لشراء "سكند هاند" (مستعمل).

زرنا المقاطعة حيث يُحاصر الرئيس عرفات وقد أصبحت أثرًا بعد عين. على إحدى الواجهات المنهارة مازالت أجزاء من شرفة يجلس عليها ما يمكن اعتباره رجال شرطة يشربون الشاي وهم يتمازحون. زياد يخبرنا أن الرئيس يعيش خلف هذه البقايا وهو محمي جيدًا ويعمل لإدارة هذه الفوضى التي لا اسم لها. كنا في الفترة التي تلت الانتفاضة الثانية.

على الرغم من ضوء النهار، شعرت أنني أخطو في العتمة... أحيي بهزة من الرأس أو بإشارة من اليد كل الناس، ونغادر المكان.

17

يافا.. ثمّ تل أبيب

حلّ دور تل أبيب ويافا، بالأحرى يافا وتل أبيب. يافا المدينة القديمة التاريخية وميناؤها الذي طالما تغنّى به الأخوين رحباني، وآثار جمال كان بالأمس هنا، لم تستطع أن تخفيه بيوتها العتيقة المتهالكة ولا الغبار الذي يسرح على أرصفتها. نعبر سوق الأنتيكا على عجل ونتقدم نحو ميدان الساعة الشهير ونحثّ الخُطى لنصل إلى الواجهة البحرية الخلّابة وننتعش بنزهة ممتعة ونلتقط بعض الصور كالسائحين.

نتجه بعدها نحو جنوب تل أبيب، أول مدينة إسرائيلية! في الحقيقة لم تراودني أدنى رغبة بزيارتها فهي تمثّل لي أول انجاز للعدو. لقد ربح فبناها وأمست رمزا لانتصاره. هكذا أيضًا يراها الفلسطينيون، وبدون مبالغة

يمكن اعتبارها المدينة الوحيدة من كل البلد التي تخص الإسرائيليين حقًا وهذا ما يبوحون به.

- إنها تل أبيبهم يا أخي، مدينتهم، مكانهم، تل أبيبهم يا أخي.

لم ألمس فيها شيئًا خاصًا، ليست سوى عمارات ضخمة حديثة تمتد على طول الشاطئ، مثل بيروت. طرازها كالبلوكوس(*) مقارنة بمبان من سنوات العشرينات والثلاثينات، تذكر بأحياء أوربية في الجزائر العاصمة والرباط.

ترافقنا خلال الزيارة صحفية فرنسية تشتغل على أطروحة حول التاريخ المعماري لهذه المدينة. أقوالها تثير غيظي ورفضي التام دون أن يعني هذا مواجهتي لها، على العكس كنت استمع لما تدلي به بكل تهذيب. على كل حال هي "غربية" الميول تمامًا. تحكي لنا أنها عاشت 12 سنة في القدس (الغربية) مع زوجها الذي يعمل على شاكلتها للتلفزيون الفرنسي، تُعلمنا أنها انفصلت عنه مؤخرًا وأنه عائد لباريس محبطًا. تختصر رؤيتها للصراع بالتالي: اعتداءات، أمن، ثم اعتداءات فأمن وهكذا... هي بالطبع ليست من النوع الذي يلحظ عربات بائعي الخضار والفواكه الفلسطينيين التي تمر بجانبهم، فهؤلاء كأنهم ليسوا هنا كأنهم ليسوا مخلوقات من لحم ودم بل كمستحاثات من العصور الحجرية.

(*) مصطلح من اللغة الألمانية يستخدم لوصف عدة أماكن منها: مأوى عسكري دفاعي متواضع وصغير مصنوع من الخرسانة المسلحة، صُمم لمقاومة هجمة جيوش العدو وقد بنت منه ألمانيا الكثير في فرنسا في الحرب العالمية الثانية - (المترجمة).

- لنذهب الآن لرؤية البحر وللسباحة.

بهذا الاقتراح يفاجئنا ساري!

يا إلهي! جنّبنا هذا "بليز" ساري، من فضلك جنّبنا هذا. الشاطئ؟ لا، ليس معهم! لكننا لم نستطع معارضته، فرض علينا الامر. يختار ركنًا مزدحمًا حيث تلتصق المظلات وتتتابع واحدة تلو أخرى وحيث سأجد نفسي ملتصقة بأجساد العدو، أجساده بالمايوهات. آه! من ساري هذا!! هل لديه احساس ما؟ حتى لو وجد فهو لا يبديه على أي حال. كم هو قوي، يمرر كل شيء بكل أريحية وصمت! ينحشر بكل مرح بين هذه الكتل التي تثير نفوري ومخاوفي وكأنه لا يبالي.

بالطبع العبرية هي اللغة المنتشرة حولنا، وبالطبع يحضر صبية مطعم البلاج وعلائم السرور على محياهم، الحمّص والبطاطا المقلية والبطيخ الأحمر والمثلجات. نعم بلاج مودرن بلمسة شرقية! يطغى عليّ شعور ندم وعدم ارتياح فأنهض لأنضمّ لابني الذي كان يطبّش في الماء ويتصرف كأن شيئًا لم يكن. أحسه مثلي مرتبكًا ضائعًا، ومثلي كذلك عاجزًا عن الكلام.

18

ولمَ كل هذه الحواجز؟!

على طريق العودة لبيت حنينا، لازمني إنهاك وشعور بالذنب أيضًا لأني لامست بكل تسامح مجتمع العدو، لأني تصرفت كما لو أن شيئًا لم يكن وبأني ابتلعت غضبًا كبيرًا كان يمور بداخلي. أضغط على كفّ ولدي وأنا ابتسم. أتظاهر، لست طبيعية. وكيف لي أن أكون؟ لقد تجاوزتني الأحداث تمامًا! لم تكن لي القدرة على السيطرة على الأمر! فعل الزمن والتاريخ فعلهما في السنوات التي انقضت. مجتمع بأكمله نشأ هنا واستقر فيما نُفيتُ وأهلي، نُهبنا وأفرغنا. نعود اليوم لنرى، نزور، ونتابع كسائحين حقيقيين كل هذا العرض المفروش أمام أعيننا بكل وقاحة. أيمكننا ابتلاع كل هذا بدون عبوس؟ حاليًا، أنا مشلولة تمامًا. ليس لدي أدنى وسيلة للدفاع، عليَّ تجميع قواي وشحذ أسلحتي الداخلية لأرتدّ. ولكن كيف؟ ومتى؟

على الطريق حواجز تنتشر كل كيلو مترين أو ثلاثة، تُوقفنا وتبطئ حركتنا. هه! إذا كل هذه الشواطئ التي تبدو طبيعية، كل هذه الطرق السريعة، هذه المدن بمقاهيها، حاناتها، مطاعمها وناسها المتجولين على أرصفتها، كل هذه اللوحات والاشارات التي تدل على الأمكنة... لمَ تحتاج إلى حواجز لحمايتها؟ ما فعلوه ليحسوا بأنهم مهددون لهذه الدرجة؟ وممن؟ مني؟ من ابني؟ من ناسي المنعزلين هناك أو من أشباحهم التي تحوم فيهم وفينا؟ عند أي لحظة من التاريخ بالذات بدأ كل شيء؟ أيها كانت اللحظة المقررة الحاسمة حيث انقلب كل شيء؟ قولوا لي! ألا يتطلب هذا شروحًا؟ أين تتموضع هذه النقطة المركزية؟ هذه العقدة المستعصية التي يجب الحسم فيها. قل لي، أيها المجتمع العدو لنعد إلى نقطة البداية بداية كل شيء. لنواجهها جيدًا. لننظر إليها سوية في نفس اللحظة، "بليز"، وبعدها لينظر كل منا في عين الآخر. قد يبدأ حينها شفاؤنا من هذا الوجع الذي أصابنا من ذلك الوقت. لعلك تعترف حينها بما سرقته مني، أو لعلني أستطيع أن أحدد بأصابعي حدود ما سُرق مني. ربما أستطيع آنذاك إعلان حدادي الأبدي ونتوصل ربما، أيضًا وأخيرًا، لأن نتحاور بهدوء. لننظر في الأمر... لعل، قد، ربما... ها أنا أهذي. ضباب كثيف يحطيني ويغمر كل وضوح وقدرة على المحاكمة. أنت العدو! هكذا أراك الآن، مسلح بكذبة كبيرة وبتقنية عالية، أنت الأقوى، لكنني أخمن كذلك مخاوفك وهشاشتك. أما أنا، فأني أمتلك سلاحًا لا يُدمّر، رؤيته غير ممكنة، هو في

داخلي، يدعى الجرح، جرحي. وفي خارجي هيكل مقاوم وصلب. إذًا، لنتوقف عن الكذب أحدنا على الآخر.

أقف على شرفة شقة ساري سيجارة في يد وقدح في أخرى، اتأمل المرتفعات الممتدة قبالتي. أتساءل عن هذه التلال وكيف استطاعوا، على ضآلة مساحتها، استغلال كل جزء منها، بل كل ذرة للبناء عليها. حين أحني رأسي أرى البيوت المجاورة وحركة ساكنيها، غسيلهم المنشور على الشرفات والأسطح، الشاحنات التي تنقل البحص والرمل. كأنها حياة عادية، إنما ثمة ما يختبيء خلف هذه الحركة الهادئة. سرٌّ ما، يدركه هؤلاء الذين يدرون ما وراء الأكمة، مصارعة، مباراة شرسة للحفاظ على الأرض وتَمَلّك المكان، التمسك به وعدم إفلاته. بعيدًا، أبعد وقليلًا أبعد، ثمة طرق تحفر الهضاب وثمة أثر لجدار يُبنى. جدار يجيء ليعقّد كل شيء، ليرسّخ الفتنة.

19

غزة، المستحيل بعينه

تمضي الأيام وغزة في خاطري، غزة المحاصرة الحبيسة سبب مجيئي، مع أني أُنذرت بأن زيارتها أمر عسير. نشّطتُ دائرة معارفي في سفارة فرنسا بلد إقامتي ولدى السلطة الفلسطينية ببلدي الأصلي رغم معرفتي بصلاحياتهم المحدودة. تابعت اتصالاتي وارسال فاكس هنا وآخر هناك وانتظار الساعات بل الأيام آملة تحقيق الوعود، هكذا هم أصدقائي ذوو المناصب الرفيعة في السلطة، لا يودون أن يخيبوا أملي فيعلنون لي بكل ثقة أنه في اليوم التالي وعند الثامنة صباحًا ستنتظرني سيارة رسمية مع سائق أمام البناية لتقودني إلى معبر "ايرتز". هم بالتأكيد يتفهمون تمامًا رغبتي العارمة بالتوجه إلى غزة لأرى عائلتي... لكن، في اللحظة الأخيرة وفي وقت متأخر من الليل اتصلوا بي ليخبروني بأن الإسرائيليين لم يرسلوا التصريح بعد. عليَّ بالتحلي

بمزيد من الصبر إذًا، غدًا، بعد غد، بعد بعد غد... سيأتي السائق وينتظرني بكل التكريم الواجب واللائق بصداقتنا القديمة. يا لأصدقائي المساكين في السلطة، أظن حقًا أن صلاحياتهم ليست أكثر من صلاحياتي! لم يكن الوضع عند الفرنسيين بأفضل حالًا، هم كذلك يخبرونني بأنهم يتابعون الاتصالات مع السلطات الإسرائيلية للحصول على تصريح... تصريح لن يهلّ عليَّ أبدًا. كنت أنتظر وأنتظر... آمل ويخيب أملي... لكن هذا التصريح الملعون لم يأت أبدًا.

في هذه الأثناء قرر ساري إقامة حفل في بيته أو ما سماه "أمسية كوكتيل" دعا إليه أصدقاء عرب وأجانب ومنهم صحافيين. قرر كل منا تحضير ما يحبّ من أطباق. ولا يكف ساري عن إدهاشي بطاقته التي لا تنفذ! هذا الصباح ذهب مصطحبًا أنيس وعلا للعمل، وبمجرد إيابه حوالي السادسة مساءًا جرى لتحضير الأطباق.

أما أنا فحمالة للهموم والقلق وبحاجة للوقت. بيد أني اليوم وجدتها فرصة للهرع إلى قلب المدينة، إلى هناك حيث أشعر بالراحة والصفاء. أخرج من البيت وأسير باتجاه الطريق المعتادة، أشير بيدي لأوقف الميكرو المعهود "فورد"، وأنسلّ بين الراكبين بثقة تفوق تلك التي غمرتني في المرة الاولى. أستمتع بقربهم وحضورهم المحبب وأتبادل الأحاديث معهم حول كل ما يهمّ وما لا يهمّ: التسوق، المستشفى وحركة المرور... بالتأكيد لا نغفل ذكر هؤلاء الإسرائيلين الأرذال وحواجزهم وكل ما يفعلونه لمنعنا من

العيش حياة طبيعية... نتناقش ونحكي عن أمور تافهة ربما إنما تشكّل جزءًا من حياتنا، استغل هذه اللحظات المؤقتة التي أتشاركها معهم، مع أهلي... ثمّ، مثل معظمهم، أنزل من الميكرو في المحطة الأخيرة عند "باب العمود" المدخل الرئيسي للمدينة القديمة. أتمشى وأتسوق وأبحث عن الملوخية التي قررت تحضيرها للضيوف، لا شيء أسهل من هذا هنا إضافة إلى أنني أحب مغزى التسمية وما تعنيه عند الفلسطينيين، إنها كلمة السر وعلامة انتماء للشعب الفلسطيني. اشتريت ثلاث باقات طازجة من فلاحة عجوز منحنية الظهر، ضممتها بكل حنان كما لو كنت أحمل رضيعًا. أترك سور المدينة ورائي وأنا فخورة بأوراقي الخضراء وأشير بيدي من جديد للسرفيس "فورد" وأنا أنادي: بيت حنينا.

أشعر بالرضى عن نفسي في هذا المكان، أنا من هنا بلا أدنى شك وأحاول أن أبدي ذلك بكل الوسائل للآخرين، كل الآخرين. أهلي كما الجنود الأعداء الذين يبثون سمومهم كشوكة سامة، ومع ذلك نتعلم كيف ننزلق من بينهم دون أن نلمسهم أو نصطدم بأسلحتهم الاستفزازية، وكم نجحت اليوم على الأخص في مسعاي وأنا أنشر رايتي الخضراء My green Card (الغرين كارد) خاصتي!

تحتدم منافسة شديدة بيني وبين ساري، فهو طباخ ماهر مثلي. وتمر الأمسية على ما يرام ويُعجب الكل بملوخيتي اللذيذة ويستمتعون كذلك بدجاجة ساري الشهية بالزيتون.

حضر صحافيون فرنسيون وألمان كلهم يتكلمون العربية ويهتمون بالمجتمع الفلسطيني، وكان هناك أساتذة جامعة فلسطينيين وفنانين وأدباء. كنا نتناقش ونتبادل الانطباعات والأفكار بكل هدوء وبعبارات موزونة تماما وتحت السيطرة. كان على الأمسية أن تمر على خير، وقد مرت! تفادينا كل القضايا الحسنة أو السيئة، فما هو حسن لبعض قد يكون سيئًا لبعض آخر... الأمر يعتمد على الجهة التي تثيرها!

ما زلت بالانتظار، تمر الأيام وأدرك على الرغم من اتصالاتي ومعارفي بأنني لن أذهب لغزة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

20

يوم في عكا

نحن في محطة القطارات في القدس، إجراءات الأمن متشددة للغاية. كنت قررت زيارة عكا التي طالما حلمت بها، غالبت خوفي وحزمت أمري على مضض. الأمر يتعلق هنا بتجاوز الخط الأخضر، بالرحيل إلى "عندهم" أو على نحو أدقّ الذهاب إلى حيث أصبح "عندهم". هناك في مجتمع العدو، ثمة مظاهر معينة علي التقيد بها حين التعبير عن مشاعري جسدًا وروحًا وعند تنقلي ضمن السكان، ثمة ضرورة للإيحاء بأنني مجرد سائحة تزور، أزور ما كان فيما مضى مدينة فلسطينية، مدينة أهلي... أعلم كل ما يجب علي اتباعه من التزامات إنما لا يقلل ذلك من خشيتي شيئًا.

ركبنا "شيروت"، كما يسمى القطار هناك، لم يكن مريحًا ولم نشعر

بالطمأنينة فيه. كان الركاب من الإسرائيليين فقط، خصوصًا العساكر. كنا كدخيلين وخشينا أن يكتشفوا ذلك فحرصنا على عدم الكلام بالعربية. تتابعت المناظر أمامي في خليط عجيب بين عربية واسرائيلية، أسماء المحطات مكتوبة أحيانًا بالعربية أو الانكليزية، وأحيان أخرى فقط بالعبرية وعندها كنا نحسّ بالضياع تمامًا. ساعتان ونصف من سفر لم أصادف قبله هذا القدر من الإرهاق والإزعاج، لدرجة أنني في لحظة ما شعرت بحنين تجاه شركة سكك الحديد بفرنسا وتذكرت جودة قطاراتهم ووجوه ركابهم المسالمة السمحة.

حين وصلنا عكا توجهنا على نحو تلقائي إلى المدينة العربية القديمة. يالروعتها بمينائها القديم وأسوارها وسوقها وجامعها الشهير "الجزار". نتنزه في أزقتها وأنيس يسير بمحاذاتي صامتًا أما أنا فيغمرني شعور بضرورة تعويض نقص ما. لا شيء ملموسًا أدركه، مجرد احساس بأن عليَّ استغلال كل لحظة وملء رئتاي بهذا الهواء الذي كان كله لي ولأهلي.

ثمة خط تماس نشعر بوجوده دون أن يوجد حقًا، يفصل المدينة إلى قسمين عربي واسرائيلي. اخترنا الجزء العربي بالطبع، ولحظنا اختلاف ما يميز سكان المدينة عن أهل القدس وبيت لحم ورام الله ومحيطها. كأن هويتهم قد ضعفت، كأنهم يملكون شيئًا ما أكثر من غيرهم... وكأن شيئًا ما ينقصهم أكثر من غيرهم. المدينة جدّ جميلة لكنها تبدو مهجورة ونظرات

سكانها حزينة، لا يتكلمون إلا فيما ندر كأنهم ينتظرون أمرًا مستحيلًا، أو أمرًا لن يأتي أبدًا. خلال تجولي عبرت خاطري بغتة مشاهد من "سجل اختفاء" فيلم إيليا سليمان.

كان ساري حدثنا عن مطعم كريستو المعروف المطلّ على الميناء. ذهبنا إلى هناك فأُخذنا بروعة المناظر وسحرنا على الأخص مشهد زوجين بثياب العرس، ما إن انتهيا من وجبة الطعام حتى توجها نحو قارب بحري وصعدا فيه استعدادا لجولة من الصور التذكارية، كل هذا تحت أنظار جمهور صغير مبتهج مكوّن على الأخص من صبية كانوا هنا يقضون الوقت بالغطس قفزًا من أعلى الصخور. بعد تناول السمك المقلي والرز والخضار والمثلجات، عدنا للمدينة في جولة أخيرة لتبادل الأحاديث مع الناس. لمست فضولهم الشديد واندهاشهم لاسيما بعد أن عرفوا مكان إقامتنا. أخبرونا بأن الفلسطينيين أمثالنا لا يأتون لرؤيتهم إلا نادرًا أما سكان الأراضي المحتلة فالزيارة ممنوعة عليهم، وقد يأتي من حين لحين بعض المهاجرين أمثالنا ممن لديهم جوزات سفر أوربية أو أميركية. تراءت لنا وحدتهم وعزلتهم وسوء حالتهم من كلماتهم القليلة.

راوتني رغبة شديدة بقضاء الليلة هناك، وكان هذا عسيرًا فلا يوجد سوى فندق واحد، لم نطمئن حقًا لصاحبه "بابوجا"، فقد طلب أسعارًا خيالية لغرفة غاية في الرداءة. ننصرف مع أن رغبتي كانت جنونية للبقاء في عكا

والاستيقاظ باكرًا للتجول فيها واستنشاق عطرها وتلمس أجوائها.

للأسف كان علينا أن نستقل القطار الأخير للعودة. وصلنا تل أبيب العاشرة مساءًا وأخذنا منها الحافلة للقدس. كان مستحيلا بالنسبة لي قضاء الليلة في تل أبيب، كنا نشعر بأنفسنا كمشتبه بهم، كنا في الأرض العدوة.

وداعًا عكا، عكا ناسي وأهلي، تركتك وشعور كبير بالاحباط يتملكني.

تركت هذه الزيارة لعكا لدينا شعورًا بنقصان، بأن شيئًا انقطع قبل اكتماله، هي اليوم مرسومة بذاكرتنا كشظايا من آمال، من مخاوف. نحاول مع الزمن خنقها وندرك أنه يجب قلب الصفحة والتفكير في الآتي. أتفحص رد فعل أنيس واستقصي أفكاره. لم يقل الكثير، لكنني كنت واثقة أنه كان مثلي مأخوذًا بدوامة فظيعة ومثلي أيضًا يتحفظ عن إظهار مشاعره. كان يريد الإيحاء بأنه يسيطر على الوضع، لكني كنت أحسّ في بعض اللحظات بأنه على حافة الانفجار، كأن جسده اليافع ذو الستة عشر عامًا وطور التحول المضطرب إلى سن البلوغ، وملامحه التي تتأرجح بين الطفولة والنضج، كأن كل هذا يحيل بينه وبين إيجاد وضعية مناسبة للتعبير عن مكنوناته. هل كان عليه أن يلعب ويلهو في هذه الرحلة العجيبة، أن يمر مرور الكرام على أكوام المشاعر التي نعبرها سوية؟ أم هل كان عليه أن يدبر أمره بنفسه، ويجعل من هذه القضية شأنه الخاص وجزءًا من حياته، وأذهب أنا حينها للرقاد مستريحة؟ في الحقيقة لا أدري وأجهل سبب مرافقته لي، ولمَ عليَّ

أن أحمّله مشقة كل هذا الحمل الثقيل. مع ذلك، ثمة صوت صغير كان يخاطبني بضرورة أن يكون هنا، بجانبي، في هذه الرحلة وبأن هذا واجب عليه تجاهي وواجب عليَّ تجاهه. في جميع الأحوال، يسير ترافقُنا معًا على ما يرام! إن تدهورت الأمور فيما بعد نرَ حينها. لكل شيء وقته.

21

صباحات بيت حنينا

بيت حنينا هذا الاسم الحنون الذي يثير الحنين! يتعذر لفظها على غير العرب، بالحاء التي تأتي من عمق الحنجرة لتعبّر عن مشاعر السكينة والألم في الحين ذاته. حاء حبيبي، حواء، وحرب...

غرفتنا الصغيرة في شقة ساري، تطلّ على منور داخلي في الطابق الأرضي من البناية، نافذتنا تقابل نوافذ جيراننا. هنا، كما في البلاد العربية، يحاذي الجيران بعضهم البعض. يحاذي، فعل يأخذ تمامًا معناه هنا بل يذهب أبعد من معناه. حاذَاه: وازاه وصار مقابلًا أو موازيًا له، أي اقترب على نحو ما، ونحن بالفعل نقترب من بعضنا البعض وتختلط حياتنا ولدى كل منا كلمته فيما يخص الآخر! جيران فلسطينيون، ياللسعادة! نشكل نسيجًا اجتماعيًا واحدًا ومتضامنًا أنغمر فيه وأنا أدرك كم أنّ ذلك مؤقت!

في الصباح الباكر وحين يستيقظ الجميع، نسمعهم جيراننا ويمور شيء ما في داخلي، لا شيء استثنائيًا حقًا فيما يتناهى لي، إنها بكل بساطة جلبة الحياة اليومية من أصوات قرقعة صحون وأولاد يبكون أو يتصايحون وأم تنادي أب فيردّ... كل ذلك على إيقاع ضجيج آت من تلفزيون أو راديو. يكفيني هذا لأحيا واقعهم، لأشعر بقربهم، دنوهم الشديد مني وهم يعيشون حياتهم بكل لحظاتها ليلًا ونهارًا. أحسّ بوجودهم، أسمعهم جيراني الفلسطينيين فتغمرني مسرّة، ويكبر احساسي الوطني، وأندفع بزخم وبخفة أكبر نحو مهامي اليومية. وأقترب من أنيس لأسأله:

- إذًا، أنيس الصامت الصغير، ما رأيك بكل هذا؟

- ولكن ماما، لا أعرف. اتركي لي بعض الوقت!

وأجيبه بحنان:

- الوقت يا ولدي، يمر... وكما تعرف فهو، وقريبًا جدًا، لن يعود كافيًا لنا!

بيد أن أنيس لا يفصح عما في نفسه، يتحصن خلف ملاحظات طارئة من نوع "العمارة مبنية جيدًا، الطقس لطيف حقًا، أحب السكاكر هنا...". هذا أفضل! قد لا أستطيع هنا التعامل مع أسئلته الوجودية التي ستضاف إلى أسئلتي. لعله أيضًا بطريقته تلك، سيساعدني على رؤية الأشياء بمنظار مبسّط.

22

على الطريق إلى النقب

أحيانًا أرافق ساري وعلا وأنيس إلى رام الله، وفي أغلب الاحيان أتجول في شوارع القدس العتيقة. لا أشبع منها أبدًا، أسير بين السائرين، أجاذبهم أطراف الحديث، أضحك معهم، أتسوق، أفعل كما يفعلون... تمامًا. ثمّ أستقل "الفورد" سرفيسي المفضل وأعود للشقة. أسترخي على الشرفة مع فنجان من الشاي أو القهوة وأتأمل في التلال المحيطة، حيث في البعيد هناك... المستوطنات.

قريبًا سأعود مع أنيس، سنرجع إلى فرنسا، مَقَرُّنا الحالي ومنفانا الآخر والأخر... مرة تلو أخرى سنعيد تشكيل لغز حَيَواتنا، قد ينتظرنا رحيل جديد، وربما نُودِع هنا وللأبد ما كان يجب أن يكون حياتنا الحقيقية.

تثير فكرة العودة في داخلي اضطرابًا بل اهتياجًا وتؤرق سكوني، فمازال عليَّ أن أقصد مكانًا ما، مكانًا لم أواجهه بعد، لم ألمسه إلى الحين، ذلك الذي بدأ منه الوجع من زمان، وجع أمي الأول.

ساري وهو مراقب نبيه، لم تفته حالتي. هو الذي طالما منحنا وأرضانا أدرك مشاعري. وفي يوم أخبرنا بلامبالاة كأنه يرمي اقتراحًا عاديًا، بأنه نظّم لنا جولة في الصحراء مع أصدقاء فرنسيين وسيارتهم ذات الدفع الرباعي.

صحراء النقب. ها هو بير السبع يعاود الظهور. لم أنسه، هو مختبئ في قرارة نفسي، في مكان سحيق بداخلي. هناك، حيث ولدت أمي وتركت بيتها، حيث جرحها الأول. هناك، حيث بدأ الرحيل ومعه المنفى، حيث أجبرت مع عائلتها على عبور الصحراء وقد علقت على حزامها حذائها بالكعب العالي. آه، لا لن أعود لقصتي هذه!

ننظم الرحلة وأنا أشعر بالاطمئنان لمرافقة فرنسيين، سيغطي هذا على تنقلاتي ويحميني من الإسرائيليين. غدًا ثانية، عود على بدء إنما هذه المرة مع ابني صلبي واستمراريتي. لا يدور في ذهن أصدقائي الفرنسيين شيئًا من كل هذا، ما يهمهم في هذه النزهة هو تسلق الصخور الحجرية في الصحراء. ليكن! لكل همه وعلى أية حال فإن المناظر غاية في الروعة.

نعم، مناظر النقب مذهلة حقًا. ترافقنا في الرحلة عالمة انثروبولوجي

اسرائيلية هي صديقة لساري. تجمع الأحجار وتمسدها بكل حنان، أسألها لم تفعل هذا تجيبني بأنها تحبها.

تُعلمني فيما بعد بأن أمها ولدت في غزة. هه! يهودية ولدت في غزة! هذا أمر نادر جدًا فاليهود قلائل هناك. تقول لي أيضًا بأنها تقيم الآن في بير السبع مع زوجها اليهودي الأميركي وولديها وبأنها، خلافًا لي، تستطيع العودة لغزة.

كلُّ الفرق هنا...

23

بيت النقب – 2

سيارةٌ تستهين بأكوام الحجارة والصخور في النقب، وأصدقاءٌ فرنسيون مرحون ومبتهجون مثل أولاد في مدينة ملاهي.

أما أنا، فأنتظر بخشية لحظة لن تتأخر. لحظة حيث، لحظة حيث... سأرى بيت أمي مرة أخرى. هذا البيت الذي زرته معها حين كنت في الخامسة عشرة، هذه الزيارة الشهيرة... أعود إليه اليوم وأمي لم تعد، أعود وعمري يقارب عمرها حين زارته، أعود هذه المرة مع ابني، سأورثه منظر بيت جدته هذا. وبعد ذلك ليتدبر الأمر كما تدبرته.

أسيعود إليه بعد ثلاثين، أربعين سنة مصطحبًا ابنه أو ابنته؟ أسيعود إلى بير السبع ليعاود رؤية البيت ويريه لأبنائه، ليجدَ من جديد هذا الخيط الرفيع

والمتين دائمًا وأبدًا الذي يشدنا ويربطنا بهذا المكان؟ لا لم ننسَ ولن!

في أحياء بير السبع القديمة، في مدينتها العتيقة، يقع البيت. لا يجد أصدقاؤنا صعوبة في معرفة الطريق فهناك قريبي سالم وهو يوجههم عبر الهاتف. نعم سالم مازال هنا! يعيش في غزة وقد غدا جدًّا لأربعة أطفال. نسي، وينقبض قلبي، تقودنا إليه السيارة وأرى البيت، أراه وأتعرف عليه. عند نزولي منها تقع مني ألة التصوير وتنكسر. ليكن! اقترب وأنا ممسكة بيد ولدي، نسيت الآخرين ولم يبقَ إلا البيتُ مركونٌ على زاوية الشارع. مغلقٌ، كلُّه مغلقٌ، وأكثر من مغلقٍ، النوافذ باتت جدرانًا والباب القديم الجميل استبدل بباب بشع من الحديد عليه كلمات بالعبرية. ماذا حدث؟ ما هذا الذي كُتب عليه؟

ضباب في الرؤية. كأني على حافة هاوية. أستجوب بنظراتي ستيفان صديق ساري. يرد:

- أصبح كنيسًا، كنيسٌ صغيرٌ للحي.

آه يا للأرذال! يا للأرذال! أقولها في نفسي... أطرح سؤالي:

- هل يمكننا الدخول؟

لا، إنه مغلق. تتابعت استجواباتي... كيف هذا، مغلق؟ من قرر ذلك؟ ولماذا؟ وما يعني الأمر؟ وكيف بات من الداخل؟ وأثاث أمي ما حلّ به؟ وأنا وابني إذًا؟ إذًا، لا شيء! نحن بمواجهة جدار، هذا كل شيء.

في كل الأحوال يبرع الإسرائيليون بلا جدال في بناء الجدران، بل يبرعون جدًا. أدور حول بيت أمسى هو الآخر جدارًا لي، أمرر كفي على هذا الجدار بحركة يائسة وأوجه نظراتي نحو ابني كأني أشرح له ما لا يشرح. ألفّ حول البيت مرة مرتين ثلاث... أدور بسرعة، فخطواتي عصبية ومتخبطة لا تريد لي البقاء أكثر، أسعى قدر جهدي للسيطرة على مشاعري. زيارةٌ باهتة بيتٌ باهت تاريخٌ باهت.

لا أرغب بأي تواصل، بأي مشاركة للنار المتأججة في قلبي. درتُ عائدة نحو السيارة وأنا أتجنب بنظراتي كلَّ شيء، كلَّ بشر كلَّ حائط كلَّ بيت...

أطرق وحين أرفع رأسي يقع نظري على ستيفان وهو يلتقط صورة للبيت... لعلّه يتعاطف مع مشاعري.

نرحل على عجل. في السيارة الجو ثقيل ومع محاولاتي للتحكم بأحاسيسي فلابد أن ملامح وجهي تنطق بكل القلق والغضب المعتملين بداخلي. حالتي الآن كما كانت عندما كنت مع أمي وابن خالتي سالم حين هربنا من "الزيارة".

الجوّ في السيارة موبوء. أحاول بصعوبة السيطرة على نفسي وأردد بصوت منخفض:

– الله يلعنكم! الله يخرب بيتكم!

ونعود إلى بيت حنينا، إلى الحواجز و... و...

24

نابلس، السامريون... وحكايا أخرى

مضى على وجودنا هنا خمسة عشر يومًا، لم يبق إلا القليل وسينتهي كل هذا، وربما للأبد. ماريان دعتنا إلى نابلس بكل لطف، تسكن هناك وتعمل مديرة للمركز الثقافي الفرنسي. إنما الدخول إلى نابلس ليس بالأمر الهيّن. الإجراءات الأمنية عند مداخلها هي الأكثر مشقة وضبطًا في الضفة الغربية. نابلس مدينة من زمن التوراة وهي اليوم مقسّمة ومقطوعة عن العالم ومنسيّة من الجميع على الرغم من هجمات لا تنقطع للجيش الإسرائيلي. نابلس الملكة المحاصرة صارت سجنًا ضخمًا يسوده غضب وخوف. تقع شمال القدس ولا تبعد عنها سوى خمسة وستين كيلومترًا، كان بإمكانها

أن تتباهى بكونها مدينة هادئة لو لم تكن أبراج المراقبة منصوبة في كل زوايا المستوطنات والقواعد العسكرية، ومصوبة فوق هذا "السجن الكبير"، كما يسميها أهلها.

نصل نابلس أخيرًا عند الصباح بسيارة ماريان الخاصة التي تحمل لوحة دبلوماسية فرنسية، بدون هذا كان من الصعب دخول المدينة. ومع هذا فهم في البدء قرروا السماح لماريان فقط بالدخول وأرادوا ردّنا على أعقابنا أنا وساري وأنيس وعلا، ثمّ إثر اتصال هاتفي مع القنصلية الفرنسية ومباحثات مع جنود الحاجز سُمح لنا، رغما عنهم، بالدخول.

ثمة حواجز ثلاثة تعترض الراغبين بالدخول لنابلس، حواراة وهو أشهرها وبيت إيبا وعزنوط. تقف أمامها طوابير المنتظرين لساعات طويلة ما يدفع المرء أحيانًا للتعبير عن غضبه، لكن ذلك يظل حدثًا عارضًا بل عارضًا جدًا فأغلب الوجوه التي أرقبها يرتسم عليها سكون قد يخيل لنا أنه نوع من استسلام وهو ليس كذلك بل أرى فيه تعبيرًا عن قوة داخلية ساكنة وهادئة تجعلهم يظهرون أمام الجنود في هيئة من يتحداهم بالقول: "لن تمنعونا من عيش حياتنا".

ها نحن أخيرًا مع طلوع النهار على مشارف المدينة، نحاذي مدينة كانت تدعى شكيم حيث، حسب التوارة، روى يسوع الناصري ظمأه من مكان عند أحد مخارجها. لكنها بدت لأعيننا المصعوقة كأنها خارجة لتوها من الجحيم مع هذه الحفرة الهائلة من كتل القطران المائع والقضبان

المعدنية... بقايا تشير إلى موتٍ مرّ من هنا، موتٌ هبط البارحة من السماء على فلسطينيين، صاروخ استهدف بحسب ماريان مسؤولين في مخيم للاجئين في بلاطة، فأمسى رُكامًا من حجر ورمل لكنه لم يكن إلا "انفجارا مُسيطرًا عليه" كما وصفه بيان اسرائيلي مقتضب.

قوات الاحتلال أغلقت المدينة العتيقة منذ أسبوع ولن نستطيع زيارتها اليوم، والأحياء الراقية تأثرت كثيرًا بقصف الإسرائيليين وتعطلت فيها أعمال الترميم والتدعيم بسبب منع تجول شبه دائم.

مائتا ألف شخص مسجونون هنا في مدينتهم، تحاصرهم حواجز هي الأشد قسوة في الضفة يعاني لعبورها الجميع حتى الشيوخ والأطفال والحوامل الموشكات على الوضع، لدرجة أن غالبية السكان كفت عن المحاولة.

ماريان تريد أخذنا إلى أعالي المدينة إلى قرية لوزة الصغيرة الهادئة المعلقة على جبل غاريزيم، لنزور عائلة تعرفها جيدًا من السامريين. للوصول إلى الجبل مركز الكون، كما يسمى هناك، والدخول إلى القرية يجب التغلب على حاجز اسرائيلي يحمي مستوطنة. يسألني ابني:

- "ولكن من هم هؤلاء السامريون؟"

وبما أني لا أدري حقًا أجيب:

- "سمعت عنهم ولكن لا أستطيع الرد عليك بعد".

مررنا أمام بقالية صغيرة في القرية، توقفنا لشراء بسكويت وليمونادة. الناس يحكون الفلسطينية هنا مثل كل مكان مع أنهم سامريون. لم ألحظ ما يميزهم عن الآخرين وأقصد الفلسطينيين، فتعلق ماريان:

- إنهم فلسطينيون ولكنهم يهود منذ الأزل. سترين!

توقفنا قرب منزل محاط بجنينة زرعت فيها نباتات وورود زاهية الألوان. يوسف يبدو فخورًا باستقبالنا وهو يشرّع لنا باب بيته. في الداخل ترحّب بنا زوجته وابناه. تأخذ الزوجة ماريان في أحضانها وتنفجر ببكاء يقطّع القلب وتحاول بين شهقة وأخرى قول شيء لها. هنا تشرع ماريان بالبكاء كذلك وسرعان ما ألحق بها أنا الأخرى مع مشاعري المتهيجة في الأصل، وأفكر أنه لابد لدى هذه المرأة المنتحبة ما يحرق قلبها. بعد دقائق أدرك السبب، خطف الإسرائيليون أحد أبنائها وهي تجهل مكانه ولا تدري في أي سجن أودع ولا إن كانت تستطيع زيارته والكلام معه. ترينا صورة هذا الفتى ذو الواحد والعشرين عامًا، تقبّله وتعابير يأس ترتسم على وجهها وتمسح زجاج صورة بللته دموعها. يتدخل يوسف الأب ويصرخ بصوت مرتجف "خلص! خلص توقفي عن البكاء". نشعر بأن انفجاره بالنحيب لن يتأخر هو الآخر. هذا ما حصل! يغطي وجهه بيديه مخفيًا دموعه ويصيح بصوت متحشرج "خلص؟ خلص!، ضاربًا كفًا بكف من وقت لوقت، كأنه يتحسّر على قلة حيلتهم مع إدراكه كربّ للعائلة بواجبه في تهدئة زوجته الملتاعة. يأمرها بالسيطرة على نفسها كي يتحكم بالوضع

المتأزم، لكنه يفشل فغياب ولده يوجعه بعمق. يسترد أنفاسه ورباطة جأشه قليلًا ويشرح لنا قصة الابن الذي كان طالبًا بالجامعة وانتسب لفصائل جبهة التحرير الشعبية الفلسطينية وأصبح مقاتلًا. لم تكن أسرته تراه في الأشهر الاخيرة إلا فيما ندر. ربما مرة أو اثنتين استطاع فيهما التحايل على أجهزة المراقبة العسكرية فمرّ ليسلّم على أمه. لكن الخبر باعتقاله هبط عليهم كالصاعقة منذ شهر ولا يدرون ما حلّ بهذا الصبي "المنيّل". كان ذهب بصحبة رفاقه عند مصور في نابلس وهو يرتدي الزي العسكري! صبيانية، تهور، الله اعلم... ففشوه هناك أولاد الكلب الصهاينة. كانت الصورة التي تحضنها الأم ولا تكفّ عن تقبيلها هي نفسها التي أُخذت عند المصور ثوان قليلة قبل توقيفهم كلهم. ملامحهم تنطق بشيء من لهو الشباب وطيشه، يبتسمون للعدسة بفرح كما لو أن الحياة كلها أمامهم. الآن اختفى ابن هذه العائلة السامرية ووقع في شباك الصيادين وترك أهله في حالة ذهول وصدمة.

- "كنت أعرف أن هذا سيحصل يومًا".

قال الأب، وتابع:

- "لم يكن عليَّ أبدًا أن أرسله للجامعة، هناك غيّروه وأثّروا عليه وعبأوا رأسه بأفكارهم. غسلوا دماغه هو الذي لطالما أحبّ الدراسة والمطالعة لدرجة كنت أخاف معها أن تدير الكتب رأسه. اليوم ها نحن محرومون من ابننا نور عيوننا ولا نعرف أين رموه! وياما من سجون

في هذا البلد! لابد أنهم يسيئون معاملته ويقسون عليه... الله وحده يعلم إن كنا سنراه يومًا. أعرفهم الإسرائيليين، هؤلاء اليهود (وهو؟!!) بلا رحمة".

ثم يتوجه بحديثه نحو ماريان:

- "أنت الفرنسية، قد يمكنك معرفة مكانه والحصول على تصريح لزيارته. أوه! أتوسل إليك. تشفعي لنا. أنت تنتمين لدولة كبرى، لديكم السلطة ونحن لسنا سوى أناس بسطاء. هذا ابننا ولا نحتمل غيابه".

ثمّ يعاود النحيب كطفل، وكذلك تفعل الأم وهي تتمخط بتنورتها بصوت عالٍ. كان الوضع أكبر من احتمالنا. يترك ساري المكان ويتوجه نحو الحديقة أما أنا وأنيس وعلا وماريان فنرتبك ونحتار ولا تصدر عنا سوى همهمات لابداء تعاطفنا. يحاول ابنهم البكر الذي أظهر انزعاجه الشديد من بكاء والديه تخفيف الأجواء، يبتلع ريقه ويعلن:

- "خلص! خلص! كفا عن البكاء كالصغار. لنقدم شيئًا لضيوفنا".

يتوجه نحونا ويسألنا بكل ثقة:

- "هل سبق وتذوقتم شاي السامريين؟ سأحضر لكم شايًا لم تتذوقوه في حياتكم!"

وما كان منه إلا أن ضرب الباب بقبضته واختفى في المطبخ.

بقى الابن الأصغر صامتًا لغاية تلك اللحظة، يقترب الآن من أمه ويحيطها بذراعيه وهو يقول:

- "لا تقلقي يا أمي، أعرف أناسًا في مناصب عليا. قريبًا سيخرج ابنك وتستطيعين ضمه بذراعيك. أعدك بهذا، أمي، أعدك وعدًا سامريًا!"

إنما الأم مغمومة لدرجة أن إخراجها من حالتها يبدو مستحيلًا. لكنها أخيرًا ترفع رأسها وتخاطبنا:

- "آه، أيها الطيبون! لا أعرف ما جرى لولدي. مالنا نحن واليهود والفلسطينيين؟ لا نريد أن تكون لنا أدنى علاقة مع هذه الحرب البشعة التي تحيطنا. نريد أن نحيا هنا على هذه الأرض، أرضنا منذ الأزل، ونعيش هنا فيما بيننا، كما عاش أسلافنا، بسكينة وطمأنينة. كم مرة قلت هذا لماجد! لكن الله يسامحه، تملأ رأسه أفكار ثورية وكلام فاضي شو ما كان... تصوروا أنه حاول اقناعي! ترونني كثورية، أنا الأم السامرية؟ أعرف أن هناك الاحتلال والقمع وأن الإسرائيليين لا يتركوننا نتحرك ويطلقون النار على كل من يرفع رأسه. لكنني أم وأريد الاحتفاظ بأولادي سالمين معافين. سينتهي الأمر يومًا، فلنطاطئ رؤوسنا الآن وسيأتي اليوم الذي نتخلص فيه من هؤلاء الجنود الأوغاد. والله، لا يعرفون من نكون! لكننا نحن السامريون، اليهود الحقيقيون. انظروا لجدران بيتنا المغطاة بكلمات كتابنا المقدس، انظروا إلى شمعداننا ذو السبعة فروع... نحن مؤمنون ونتشبث بأرضنا التي لم نتركها أبدًا. لسنا كالآخرين الذين يعودون إلى هنا ويرووِن شو ما كان. نحن سامريون والله يسمعنا...".

ها إن معرفتي بالسامريين تتوسع! غادرناهم ونحن نعدهم بفعل ما بوسعنا، ما يعني في الحقيقة، لا شيء على الاطلاق! أعلمني ساري بالمزيد عنهم. قوم ينحدرون من إبراهيم ويعقوب، وهؤلاء الذين يعيشون في نابلس لم يغادروا قط سفوح جبل غاريزيم وباتوا مجموعة من ثلاثمائة شخص، ضعيفة ومثيرة للشفقة ومهترئة نتيجة زواج أفرادها بعضهم من بعض. ينظر إليهم كفرع منفصل عن اليهودية، وقد جعل منهم الشقاق الذي حصل 600 سنة قبل الميلاد، منبوذين إلى درجة أن الأناجيل تضعهم على حدة، يفسر ذلك العداء الشرس الموجود بين اليهودية الأرثوذكسية والعبادة السامرية التي لا تعترف لا بالقدس ولا بالتلمود. يعتبر السامريون أنهم هم الأصليون المنحدرون من مملكة إسرائيل. كتابهم المقدس الأسفار، والمكان الوحيد الذي يعترفون بقدسيته موجود على جبل غاريزيم حيث أنزلت عليهم العقيدة. حين نطرح عليهم السؤال حول أصولهم فهم يرددون جوابًا واحدًا:

- "نحن من نابلس، وفيها كنا على الدوام".

هذه المجموعة تطالب بهويتها الفلسطينية حتى لو كانت الدولة الإسرائيلية تدّعي حمايتها وتخفف من إجراءاتها القاسية معها على الحواجز، وقد وهبت أفرادها هدية ثمينة! لوحة صفراء إسرائيلية ورقم تسجيل للمركبات خاص بهم. على الرغم من هذا، ففي الساعات الحرجة والمؤلمة جعل السامريون من كفاح النابلسيين كفاحهم الخاص دون أن ينسوا اتخاذ

كافة الاحتياطات كي لا يظهروا بمظهر الخائنين أو الفدائيين. لم يكن تجاوز هذا بالأمر النادر كما تشهد قصة ماجد. في الحقيقة فإن جماعة السامريين متمركزة في منطقتين والعدد الأكبر منها موجود في نابلس فيما يقطن حوالي مائة منهم في حولون ضاحية تل أبيب.

الآن كيف بوسعنا تسكين آلام هذه الأم الثكلى وهذا الأب الذي مزقته الأوجاع؟

أنا، لا شيء بيدي بالتأكيد. أما ماريان، وعلى الرغم من تأثرها فلا شيء بمقدورها فعله من أعالي مركزها الصغير "كدبلوماسية صغيرة لا قيمة لها". كما تقول عن نفسها!

تركنا جبل غاريزيم واتجهنا نحو مركز نابلس حيث سنلتقي حماد، صديق آخر لصديقتنا العزيزة ماريان. حماد خياط ويصمم ثيابا للعرائس، أصلع، صبوح الوجه قصير القامة وبدينها. استقبلنا في ورشته بحرارة وهو يزيح بحركة خفيفة أنيقة أكوام الأقمشة والمقصات وبكرات الخيطان المتراكمة فوق طاولته الكبيرة. فرحته بقدومنا ارتسمت بجلاء على مُحياه السمح.

– آه قدمتم من عند السامريين. كلنا سامريون في نابلس، لكنهم هم السكان الأوائل! ساندونا باستمرار ووقفوا معنا ولهذا احترمناهم دائمًا حتى أن بعضهم ممثَّل في السلطة الفلسطينية، وبعضهم الآخر يعمل موظفًا، وإن كانت التجارة موهبتهم الأولى.

يصمت برهة ويعقب:

- حسنًا! لنتوقف الآن عن الحديث عنهم. سأغلق متجري وسنقوم بجولة في المدينة وما على عرائسي الجميلات سوى الانتظار أكثر!

وجدت فكرة حماد رائعة لا سيما أني كنت أشعر بحاجة لتنشق هواء منعش بعد معاناة الصباح. هكذا نتجه سوية إلى نابلس.

نصل ساحة الدوار في مركز المدينة، نجدها تغصّ برائحين وغادين وحركة لا تتوقف فيها لحشود تبدو في ظاهرها متبلدة الاحاسيس لا تنفعل لشيء، لكن يمكن لها وفي لحظة أن تتحول إلى النقيض تمامًا ويتحول سكونها الظاهري إلى غضب وتمرد. إنما هي تتراءى لنا في الوقت الحالي هادئة منشغلة ومنصرفة لمشاغلها اليومية. يصلنا برغم الضجيج صوت المؤذن وقرع أجراس الكنائس كأنها صدى لأنغامه.

تُعرف نابلس بكونها مدينة محافظة، وهو ما نتلمسه في شوارعها وعلى وجوه سكانها المنغلقة. يمشون بخطى واثقة كما لو أن مسارهم مرسوم من زمن طويل، يتبعون دروبًا معينة يعرفونها جيدًا، لا شيء يزعجهم ولا حتى الاحتلال نفسه المشرّع فوق رؤوسهم. كأنه غطاء لا مرئي من الرصاص، لا يؤثر فيهم ولا يسحقهم، كما لو كان غير موجودًا. لا يثيرون قصصه مع إنه بنظرهم قضيتهم الأساسية. قصف الجيش، الصواريخ التي تهطل، الدمار، المقاومة وهؤلاء الذين يدخلون سرًا... كلها أمور تحدث على

إيقاع خاص بهم، هم النابلسيون. إنهم على حدة، لا يشبهون أهل رام الله والقدس أو المدن الاخرى... في الحقيقة بدوا لي كالسامريين، دائمًا مع بعضهم ولكن في حيز أوسع. قد يؤكد تحليلي المتواضع لهم ما شهدته في الأمسية التي قضيناها عند عائلة عبد الباري، إحدى أكبر العائلات النابلسية.

ابن العائلة مهندس، كان فيما مضى زميلًا لساري في جامعتي دمشق وفرانكفورت. حين تناهى إليه وجودنا بنابلس، دعانا لبيت العائلة الفخم في حيّ راق من المدينة يقع مقابل جامعة النجاح، الأكثر قدمًا والأشهر في البلد. الأبّ عبد الباري طبيب وشخصية بارزة من البرجوازية القديمة، وعلى الرغم من أنه توفي من زمن ليس بالبعيد إلا أنه يظلّ مرجعًا في المدينة. تستقبلنا الأم وهي تعمل معلمة لتعليم أطفال اللاجئين مع وكالة للأمم المتحدة. كل شيء يسير على مايرام وكما يليق بالعائلة الكريمة. لكن انتبهوا! لكلّ مكانته في هذه الحياة! تخاطبني السيدة وهي تزيح جريدتها وترفع نظاراتها بأطراف أصابعها:

- نفعل ما بوسعنا لهؤلاء المساكين. محرومون من كل شيء وخاصة التعليم.

ملاحظتها تقول الكثير، هل يمكن للفارق الطبقي أن يكون أشدّ وضوحًا؟

نتناول العشاء في الحديقة حيث حُضّرت المشويات من دجاج وخضار لذيذة في فرن قديم مبني في ركن منها. ماريان مستاءة، كانت ترغب بدعوة حماد الخياط ولكن سيف عبد الباري انفجر ضاحكًا قبل أن يعترض:

- ولكن يا فرنسيتي الصغيرة، هذا النوع من الأشخاص، مع كل احترامنا لهم، لا يخطّون عتبة بيتنا. لكل موقعه في هذه الدنيا.

كان على صواب وكنا البرهان. أنا من عائلة كبيرة من غزة، ماريان فرنسية، أي أجنبية، أما ساري فصحيح أنه من مخيم للاجئين في سورية، لكن الصداقة القديمة التي تربطه بالابن عبد الباري وأهميته وعلاقاته الدولية كانت كلها أسباب "مخففة" جعلته مقبولًا في أوساطهم.

بينما حماد لم يكن سوى خياطًا صغيرًا من نابلس، هذا كل شيء! هكذا، لم تلمس ماريان الطعام وتابعت حردها ولوت بوزها حتى نهاية السهرة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

25

القدس، كمان وكمان

لم يذهب أنيس مع ساري وعلا إلى العمل اليوم، فطلبتُ منه مرافقتي إلى القدس. لا أريد زيارة السوق وشوارع القدس العتيقة فحسب، أودّ كذلك التعرف أكثر على تاريخ المدينة وأساطيرها. نبدأ من أسوارها الرومانية التي رممها السلطان العثماني سليمان القانوني أو العظيم كما يلقب في الغرب. ثم نحوّل على أبواب المدينة الخمسة عشر. خمس عشرة طريقة للدنو منها... هذه الجميلة الخاضعة، المنصاعة، المطواعة التي تدعك تتغلغل فيها... باب يافا؟ أو باب الست مريم الذي يقود إلى ضريح العذراء؟ أو لمَ لا، باب الأسود؟ الباب الذي نحت عليه السلطان المملوكي بيبرس الأسود ليردّ لعنة رؤيا تنبأت له بأنه سيموت ممزقًا بأنياب وحش. اليوم، لن نسلك الزقاق المار بباب العمود الذي أمرّ به عادة.

يكفي الدخول إليها، لنسير بعدها ونتقدم وأعيننا مغمضة، مفتوحة، لتلفّ خطواتنا وتسير بنا في متاهة، نضيع تارة فيها ونجد الدرب تارة أخرى، وكم نغدو سعداء ونحن نتمشى مأخوذين بجمال عمارة، عظمة مكان أو أثر ما... كنيسة القيامة، مثلًا!

- "انظر أنيس، هذه كنيسة القيامة وفي هذا المكان صُلب المسيح وأيضًا نُصّب الامبراطور كونستانتين عام 326. إنه صرح هائل فيه الصليب والقبر المقدس".

أخاطب ولدي لكني في الحقيقة، كنت أحكي مع حالي.

- "انظر يا بنيّ! افتح عينيك على وسعهما!

لكني أحس بنظراته مشوشة. مثل كثير من الجزائريين، هو أيضًا يجد صعوبة في الاعتراف بالتنوع الديني الذي يميز شرقنا. كيف لعربي أن يكون مسيحيًا؟ كل هؤلاء الذين يعرفهم في الجزائر مسلمون.

- ولكنهم مسيحيو الشرق، إنهم الأصل.

ويسألني:

- واليسوع؟

- "يسوع ليس فرنسيًا ولا هولانديًا ولا دانمركيًا. إنه فلسطيني".

ندخل كنيسة الملاك التي تقع فوق تلة الجماجم حيث صُلب المسيح. في المدخل بعض كهنة أغريقين ورجال دين إثيوبيين يحاولون بكل لباقة إدارة حشود الحجيج. نراقب تعبد الزائرين، بالأحرى الزائرات. أولئك الفلسطينيات العربيات المسيحيات يبدوّنَ مثالًا على الحمية الدينية بغطاء

الرأس الملون وتمتماتهن وهن يشعلن الشموع أو يتخذن وضعية الصلاة فيجلسن بخشوع يهمسن بصلواتهن.

- "إنهن خالاتي أنيس، aunty كما نقول هنا على الطريقة البريطانية، خالاتي الختيارات. خالاتي من بعيد، هؤلاء اللواتي لم يرحلن من هنا أبدًا واللواتي يسرن على تقاليد الأجداد. نعم، إنهن مثل جدتك، يلففن ورق العنب ويطبخن الملوخية والبامية ومحشي الكوسا... لديهن نفس الوصفات مع تنوع صغير ربما لتتلاءم مع ذوق المقادسة. ذات الوصفات، ذات الأمهات، ذات الخالات... مع فارق أنهن كنّ دوما في المواجهة وبقين هنا أمام العدو، يتابعن حياتهن على هذه الأرض. "أوه يارب يا حبيبنا" تهمس واحدة للأخرى، يقتربن بهدوء وعزّة من مدخل الكهف المقدس ينحنين كثيرًا ويركعن بركبة واحدة على الأرض، ركبة توجعهن لا ريب لكنهن يسجدن لأداء صلاة أخرى. أخذت آلة التصوير واقتربت لأضغط على الزر، أردت التقاط صورة لهذه المغارة منبع لإيمان كبير. إنما ليس الأمر يسيرًا، فسيداتنا اللطيفات يتدافعن لولوج المغارة. أجد نفسي ورائهن دون قصد، وصورتي تبدي ضخامتهن من الخلف ولا تلتقط سوى مؤخراتهن العريضة. اتسلح بالصبر وانتهي بالنجاح في المحاولة السابعة أو الثامنة. أخيرًا بات مدخل هذه المغارة الشهيرة التي شهدت آلام المسيح الأخيرة مسجلًا في الكاميرا.

أشعر بالرضى، فنخرج ونسير على درب الالام الذي يسلكه حجاج كثر وهم يستعيدون آلام المسيح. يُستهل الدرب من أطونية، قاعة المحكمة

التي كانت قلعة في العصور القديمة حيث كان بونطيس النبطي. ننزلها متوجهين نحو باب الأسود الذي يقود إلى جبل الزيتون، هنا تشهد أعيننا مشهدًا رائعًا للمصابيح الذهبية لكنيسة مريم المجدلية المبنية نهاية القرن التاسع عشر من قبل الروس الأرثوذكس.

- أنيس، هل تصغي لشروحاتي؟ أتبصر ما أبصر؟!

لا أدري. هو أمام هذا الموقع البديع لا يتوقف عن النق واظهار علامات التعب وربما الضجر كي لا نتابع المسير. أعتقد بأني لو كنت في عمره لفعلت مثله. لا شيء يثير اهتمامه في هذه المناظر الثابتة المستقرة حيث السكون يغلّف كل شيء.

- حسنًا بنيّ! لن ألحّ. أبقى أنا هنا وترجع أنت إلى بيت حنينا. لكن، ليس قبل أن ترى كنيسة الجثمانية، على كل نحن عندها وها هي الحدائق المزروعة بالزيتون حيث عاش يسوع لحظاته الأخيرة قبل أن يمسك به الجنود".

في اللحظة التي كنا نودع فيها بعضنا البعض، نلمح معًا قبة الصخرة، لم تكن المرة الأولى بالطبع فهي مرئية من كل مكان.

نورها يعمّ المدينة وأطرافها. نحن الأن نجاورها قريبون منها نكاد نلامسها، يالعظمتها سنحتاج وقتًا لزيارتها، لذلك اتفقنا على العودة في الغد لنشبع منها ونصلي فيها.

اختصر زيارتي فجأة، وأعود مع أنيس.

26

الحرم القدسي الشريف وصلاتنا الأولى

صباح اليوم التالي توجهت باكرًا مع ابني إلى ساحة المسجد الأقصى. غمرنا جوّ من حرية وسكينة في وساعتها اللانهائية، نتجول يدًا بيد وشعري مغطى بمنديل أعارني إياه حراس المكان وطلبوا مني وضعه على رأسي، بالأحرى أجبروني. جلسنا على حافة نافورة صغيرة حيث يتوضأ الناس. ثمة أطفال لاهون يلعبون حولنا، نساء ورجال يروحون ويجيئون، آخرون يفردون طعامهم ويغمّسون... الجو عامر بالصفاء في هذا المكان المقدس، روحانيته تتزاوج على نحو مدهش مع سلوك الناس في أرجائه، هم هنا على راحتهم، يسعون ويتحركون كما يفعلون في حياتهم اليومية الاعتيادية.

لا شيء مما خشيته في البداية، لا توتر يمكن تلمسه. يستفهم البعض عن مكان قدومي وأصولي فأرد بفخر:

- "غزة".

عندها، كأن عصا سحرية تمس الوجوه وترسم عليها ترحيبًا وتأهيلًا:

- "آه! أهل غزة المساكين، أهل غزة! على العين والراس، والله أنتم كبار المقاومين، يالكم من شجعان، أنتم مصدر فخرنا".

نصل الحرم القدسي الشريف الذي بناه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان عام 692. ندخل المكان من باب المغاربة القريب من الحائط الغربي. الساحة تمتد بجلالها أمامنا تنتصب فيها قبة الصخرة حيث عرج النبي محمد إلى السماء، الصخرة التي تشير إلى مركز العالم عند قدامى علماء الجغرافيا المسلمين... هنا صخرة ومسجد وساحة ومعهم كل التوترات والصدامات والمعارك التي لا تتوقف بين المسلمين واليهود.

نجلس جنبًا إلى جنب نتذوق بصمت عظمة المكان، تقترب منا شابة محجبة تحمل بيدها قرآن، تتوقف وتبدأ بقراءة بعض الآيات بلغة عربية ركيكة ومضحكة. تستمر ربع ساعة بقراءتها المتعثرة والمؤثرة، وحين تنتهي تكلمني لتشرح لي بأنها أميركية فلسطينية ولدت وتعيش في الولايات المتحدة. حدثتني عن تشوقها الطويل لهذا اليوم. إنها المرة الأولى لها هنا وهي تشعر بخشية من الدخول للمسجد، تخاف ألا تحسن التصرف، ألا تصلي كما

يجب وأن تثير غضب المصلين. آه، يشعرني اعترافها بالاطمئنان! أنا أيضًا أخشى، أخاف، لا أجرؤ. أما أنيس فلا داع للحديث عن مشاعره بهذا الشأن. لم يصلِ في حياته بل لعله صلى فقط في السنة الأولى في المدرسة حين كنا في تونس. تسلحنا نحن الثلاثة بالشجاعة ونهضنا قاصدين المسجد. في تلك اللحظة اعترضتنا دورية من الجنود. كنت طوال الوقت أحاول تجاهلهم وتجنب التحدث أمامهم. مع أنهم كانوا دائمًا هنا، هم دائمًا هنا... في كل مكان. طلبوا أوراقنا وأخذوا كل وقتهم وهم يتفحصونها ثم رفع أحدهم رأسه وسألني عن عمر ابني:

- "ستة عشر عاما".

قلتها بنبرة متحدية.

تمعنوا فينا لبرهة ثم غادروا. ياللغرابة، ترك هذا الاستجواب لدينا أثرًا إيجابيًا! قضى على خشيتنا! كأنه كان ترفيهًا، كأن الجنود كانوا العقبة الأخيرة أمامنا وها قد انتهينا للتو من تجاوزها فدخلنا.

أخذت أصلي وأبذل كل جهدي في صلاتي، أنتقي السُّوَر التي حفظتها عن ظهر قلب في صغري، وأرمق بقلق ابني من وقت لآخر. اطمأننت عليه وقد رأيت حوله رجالًا كانوا سعداء بارشاده للحركات المطلوبة. أما أنا، فلم أستطع خلال صلاتي منع شعور غريب من التسلل إليّ. كنت في الحين نفسه "جوه وبره". لم أتمكن من الذوبان في الجو المحيط. كنت فقط شديدة التأثر بهالة الغموض التي تلفّ المكان والتي أثقلت على قناعاتي

الدينية المتواضعة، لقيت نفسي تتصرف كأجنبية خرقاء. لكن وجودي في هذا المكان كان أساسيًا لي، نوع من واجب، من فرضٍ تجاه كل المؤمنين. أو... حسنًا... لا أدري... ربما لطرد الأرواح الشريرة القديمة القابعة في روحي. كان بودي بصدق أن أكون مخلصة في صلاتي وأن أؤديها بإيمان لكني أظن أني لم أفلح بمخاطبة الله، بل أجرؤ أيضًا على الاعتراف أن الخشوع نأى عني وغادرت المكان وفي ذهني أن صلاتي في المسجد الاقصى لم تكن كما أردت لها أن تكون. اضطربت لشعوري هذا وبالطبع لم أنطق بشيء من خواطري لولدي.

الخاتمة

أقول في نفسي منذ عودتي منها، لعلّها رحلتي الأخيرة إليها، لعلني لا أرجع ثانية، بل لعلني لا أتمكن... يا لغرابة شعوري! فلسطين المستوطنة حنايا قلبي، هي أملي وهلعي معًا.

لطالما حلمت بوطن كل شيء فيه يسيرٌ واعتيادي، وطن لا تطاله تعقيدات تزداد يومًا بعد يوم وتتمكّن منه وتلقي بظلالها الثقيلة القاتمة عليه...

عودة أعادتني، على نحو ما، إلى نفسي، إلى شعورٍ بتيه، بخواءٍ جوهري جاثم في دواخلي من زمان. جرح ما، أحسه منذ الطفولة مازال هنا يوجعني أكثر فأكثر، تزداد شدته مع تقدم عمري. مع هذا، أفكر وأتساءل في بعض الأحيان إن كانت فلسطين هي حقًا المسؤولة عن حالتي، جروحي وتوهاني. أهي حيرتي الحتمية التي تغشي إلى هذا الحد بصيرتي ووجودي؟ أهي هذه المعاناة المستقرة وهذا التمزق الملعون؟ لعل فلسطين ستارة لوجع دفين وأساسي في أعماقي؟ هي التي أضاعتني منذ طفولتي الأولى، هي التي صاحبتني في لهوي الأبدي، هي هذا الوطن أو اللاوطن مع كل مآسيه، هي عنوان أشجاني وأحزان وجودي. بدونها، أكان بوسعي العيش بسعادة أكثر، بصفاء...؟ لست أدري، حقًا لست أدري...

لكنها معي في كل أحوالي، هي هنا ودائمًا هنا، فلسطينيتي. غادرتها، تلك الأرض بعد هذه الرحلة "السياحية". تركتها هناك، مثلما فعلت أمي، وكل شيء فيها يكافح عذاب وشكوك الأيام. هي أيضًا تركتنا. غادرتها دون موافقتها. قطعت رحلتي. نعم هذا الرحيل كان في حقيقة الأمر قطيعة قسرية أردتها مع نفسي، مع هذا الوطن الحبيب والمستحيل. تخليت عنها، تركتها لمصيرها، فلسطينتي، وهي أعادتني إليهم، إلى أهلي. وكيف لي أن أفعل بخلاف ذلك؟

شاهدت المدن وزرتها بلهفة، قطعت طرقات ودروب، عبرت قرى وأرياف، تشربت ألوانها، روائحها، ضجيجها... الخليل، بيت لحم، بيت ساحور وغيرها... لكن، ثمة لحظة تكتمل عندها أي رحلة، فماذا عن رحلتي أنا؟ رحلتي أنا لا تكتمل.

رجعت إلى نانت مع ابني وثمة شعور في داخلي بأني مررت له شيئًا ما. أورثته حكايتي، إرثٌ مسمومٌ ربما، فماذا سيفعل به؟ لست أدري. آمل فقط من كل قلبي أن يتدبر أمره معه أفضل مما تدبرت.

تمت

مكتبة
t.me/soramnqraa

telegram @soramnqraa

بيت النقب

سوزان الفرا من مواليد غزة فلسطين عاشت في العديد من البلدان العربية والغربية من مصر إلى السعودية إلى الجزائر إلى تونس ثم بلجيكا والآن مستقرة في فرنسا. عملت في مجال الصحافة والترجمة والتدريس. لها عدة إصدارات وأولها "بيت النقب" الذي نشر أولًا في الجزائر ثم في كندا وفرنسا وحصل على الجائزة الإفريقية المرموقة "يامبوولوقام" في باماكو سنة 2010.

تدور القصة ابتداء من زيارة خاصة جداً إلى بيت والدتها في بير السبع. استولت عليه عائلة يهودية متدينة ومنذ تلك اللحظة انقلبت الأشياء رأسًا على عقب.

دار العين للنشر
Elain Publishing House